299

رواية

وائل رداد

جنازة الملائكة

A.M.

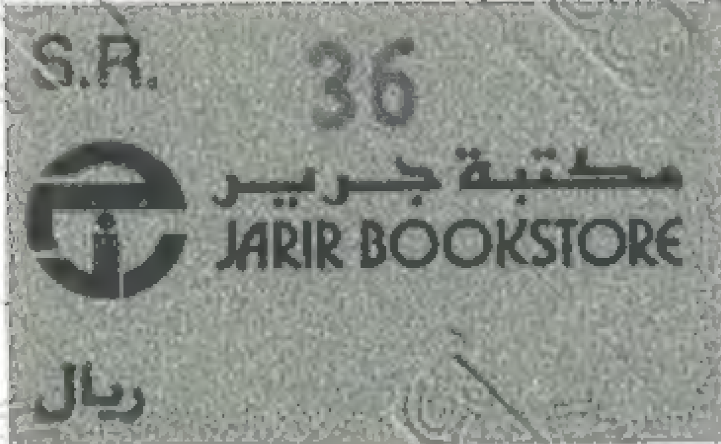
رواية
Rewayah

جنازة الملائكة

وائل رداد

رواية
Rewayah

Friday
14/12/2012
Riyadh





دار رواية للنشر
لندن
104 Queensway
London W2 2RR
UK
E-Mail: info@rewayah.co.uk
www.rewayah.co.uk

ISBN 6281140024161 -1



قالوا عن الرواية

لسويعات لم تدم طويلاً ، وليتها فعلت . خلت أنني هناك في ارض العزة والكرامة .

د- نجم مسفر الحصيني

رئيس قسم الفيزياء بجامعة الطائف

جنازة الملائكة.. حكايات بين الحلم والواقع. أبطالها عاشوا بشرف، أحبوا بنقاء، استشهدوا بعزة.. نمرٌ طموح.. وفداءٌ صابرة وجدةٌ مازالت تروي حكايات يتعلم منها الأطفال معاني العزة التي فقدوها في هذا الزمن... (جنازة الملائكة) عمل روائي رائع.

أ- مروان الصقعبي

مشرف تربوي وباحث في حقوق الطفل

منصور عبد الحكيم

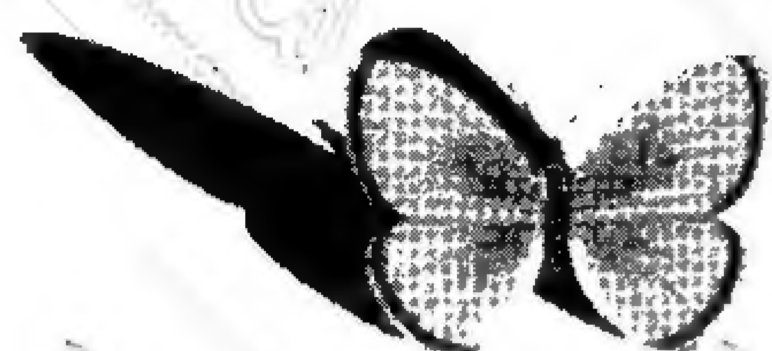
كتابنا القادم

تيمورلنك

إمبراطور على صهوة جواد



سفَّاك الدماء وهادم الحضارات



جنازة الملائكة

وائل رداد

إهداء

إلى أبي وأمي..

أغلى ما ملكت..

وأحب من عرفت..

٥

عندما أفاق الشاب الأشقر أخيرا، وجد نفسه راقدا على سريرٍ أبيض تفوح منه رائحة المستشفيات النفادة..

لم يكن الخواء شعوره الوحيد، فقد تنملت أطرافه حتى شكك بإصابته بالشلل، ولم يهتم بالمسألة كثيرا في الوقت الراهن، خصوصاً وأن زائراً كان يجلس أمامه بصمتٍ حزينٍ..

كانت فتاة ذات ملاحةٍ عذبةٍ.. تأملته بعينين زبرجديتين دامعتين، فتبسم بسمة شاحبة قائلا:

ـ إنهي هذا الحزن في التو واللحظة..

بقيت صامتةً واجمة، فاسترخى في رقدته مغمغماً:

ـ هل ستظلين صامتة كالتماثيل هكذا؟ ما نفع زيارتك إذن؟

ـ أيها المعتوه!

وغطت بصرها بكفها كي تمنع مزيدا من الدموع المنحدرة، في حين قال لها دونما اكتراث:

ـ أهذا ظنك بي؟

ـ وسيبقى! إلى متى ستظل على هذه الحال المزرية؟ انظر ما أصابك نتيجة السهر والأرق والحبوب المهدئة التي تتناولها طيلة الوقت عوضاً عن وجبات طعامك.. فكان لا بد وأن تسقط في النهاية فاقداً الوعي!

قال باسماً في تهكمٍ:

ـ أتخافين علي؟

ـ أولست زوجتك؟

ـ لا تخافي.. لا تخافي أبداً!

حدقت في تقاسيمه قبل قولها باحتدادٍ عنيفٍ:

ـ من يكون (فاتك) هذا؟

فوجئت بوجهه يشحب شحوباً غير طبيعي، وهالها أن رأت عرقه يتصبب غزيرا عبر مساماته وكأنه في حمام بخار، فهمست برهبةٍ:

ـ هل أنت بخير يا (يزن)؟ هل أستدعي الطبيب؟

ونهضت على عجل، لولا إمساكه بمعصمها كي يجبرها على البقاء..

تأملها ملياً، وبنبرة مترددة تساءل:

ـ أكنت أهلوس أثناء نومي أم ماذا؟

ـ كنت تتحدث..

ـ ماذا كنت أقول؟

ـ بأنك تسببت في مقتل (فاتك)..

شعرت بمعاناته في قلبها لما أبصرت دموعا تترقرق في مقلتيه، فهمست بتهدج:

ـ ذكرى أليمة؟

ـ ذكرى أليمة؟! يا له من تعبير لطيف!

ـ الأمر أكبر من ذلك إذن..

ـ الأمر كله لا يمكن وصفه بكلمات، إنه عذاب سنين طوال..

وحاول كفكفة دموعه، لكن محاولاته كلها باءت بالفشل..

قربت كرسيها منه، ووضعت أناملها الناعمة على كتفه..

لم تكن مجرد زوجة وناشرة لأعماله الأدبية.. كانت تحبه بعمق، لكنها لم تتمكن من النطق باعتراف الحب مؤخرا، فقد بدا رجلها غارقا في عوالمه الخاصة، وكثيرا ما تكلم عن مملكة أحلامه التي يعيش فيها كملك!

كانت تغرق حتى النخاع في تلك العوالم عبر كتاباته، ولكن قبل مدة استجد الأمر.. نوبات هستيرية كالصرع تجعله يفيق كل ليلة صارخا بجنون، أشياء في شقتهما تتحطم، ودماء تسيل من جروحه بقصد أو بغير قصد.. لقد انقلب السحر إلى عنف ورعب، واسم واحد ظلّ يتردد حتى كرهت سماعه..

- "(فاتك النمر)!"

وغطى وجهه بكفيه مرتعشاً، فهمست برفق متوجس:

- هلم يا (يزن)، إنك تبالغ بردود أفعالك، أنا أعرفك تمام المعرفة، إنك أهون من أن تؤذي نملة، فما بالك بقتل رجل؟!!

- بل فتى، كنا فتيانا عندما وقعت المأساة..

- حكاية قديمة إذن..

- حكاية كالجحيم، أتمنى لو أعزلها عن رأسي للأبد!

- الأمر أبسط مما تتصور يا (يزن)، يجب أن تكون أقوى من ذلك.. أنت أقوى من ذلك.. صدقني!

- لم يتبق لي سوى الهرب من هذا العالم الكئيب.

صاحت ساخطة وهي تنهض:

- أتعلم أمرا؟ تبا لك ولفاتك هذا معك!

لم نستفد منه سوى كوابيس وانهيارات عصبية باءت بالفشل برحمة من الرب..

حدّجها بنظرات تقدح الشرر أخافتها، وبقساوة تمتم آمراً:

ـ اجلسي!

أذعنت لأمره وهي تراقبه بخوف، فتنفس بهدوء كي يبعث بعض الاسترخاء في أعصابها وأعصابه، ثم قال رافعاً وجهه للسقف حيث تدلت مروحة معطلة:

ـ هذه الفاجعة قد تغير من مجرى حياتك.. صدقيني!

ـ ولماذا؟

ـ لأنها مأساة بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، فهل أنت مستعدة لتحمل أعباء العذاب معي؟

ـ أنا مستعدة لبذل أي شيء من أجلك.

قالتها بنبرة متهدجة، لكنه تجاهل ذلك وهو لا يزال يتأمل السقف ببصرٍ شاخصٍ..



الفصل الأول

حكايا النَّهَار

يحكون في بلادنا..

يحكون في شجنٍ..

عن صاحبي الذي مضى..

وعاد في كفنٍ..

(محمود درويش)

حكاية النمر

على مرمى من بصره أشجار وأشجار، منظرها لم يكن مبهجاً على الإطلاق..

ورويداً رويداً غاصت شمس حمراء اللون في الأفق الأرجواني الداكن.. لقد لفظ النهار أنفاسه الأخيرة..

كان ذلك عندما لمح الصبي الكوخ العتيق، فقرر المجازفة بسؤال قاطنيه، فكل أهالي القرية من كبار وصغار يعلمون بأن تلك البقعة من الغابة السوداء مرتع للغيلان، حيث تتصيد الصبية الذين ضلوا طريقهم لعجزهم في الذود عن أنفسهم.

لم يكن (حسن) مؤمنا بوجود الغيلان، قد فهم أنها طريقة الأهالي الفعالة في ترهيب أولادهم، كي

لا يخرجوا إلى حيث تلك البقاع التي تؤوي ذئاباً شرسةً هي الخطر الحقيقي والمفزع..

كان الكوخ قديما للغاية، يستحيل على بشرٍ عاقلٍ أن يقطنه، فهو آيل للسقوط بأية لحظة..

طرق الباب بقبضته الصغيرة بحذر.. من يدري؟ لربما يقطنه إنسان فقير لتلك الدرجة المحزنة..

طرق عدة مرات، فجاوبه الصمت في كل مرة..

نفخ الهواء من فمه بغم لتلك الورطة التي أوقع نفسه بها، فقد كان صلباً رغم صغر سنه، وهو بحاجة لما هو أكثر من الضياع في مكان كهذا كي ينوح نواح الفتيات الصغيرات.

فما ان هم بالرحيل حتى استوقفه صوت انبعث من الداخل كهمس الرياح:

ـ من بالباب؟

صوت امرأة عجوز لا يكاد يسمع لضعفه، فرفع (حسن) عقيرته وكله أمل بالخلاص:

ـ تائه يود معرفة الاتجاه الصحيح لقريته..

ـ ادفع الباب فهو مفتوح..

دفع (حسن) الباب ودلف للداخل، فوقع بصره على امرأةٍ متشحةٍ بالسواد كراهبة، تجلس على مقعدٍ قديمٍ متآكلٍ، لم يتمكن من تبين معالم وجهها لجلوسها في العتمة، وغطاء الرأس الذي تسدله قليلاً عليه..

ـ "عمت مساءً يا جدة.."

ـ "اقترب يا بني من المدفأة، فالجو بارد للغاية.."

ـ "هذا من لطفك.."

واقترب براحتين مفرودتين متلهفا من نيران المدفأة الموقدة، التي تتراقص منتظرة رغبته العارمة بالدفء العذب..

بقي أمام اللهب الممتع دقائق صامتاً مستمتعاً..

ثم قال للعجوز ممتناً:

ـ شكرا لله على وجودك يا جدة..

ردّت عليه بصوتها الضعيف وبنبرة حزن وأسى:

ـ آه يا بني! كم يطرب قلبي ويهنأ كلما ناديتني بالجدة.

ثم أردفت منتحبة:

ـ كانت حفيدتي الوحيدة تملأ عليّ حياتي الفانية.. الجميلة العزيزة الغالية! لطالما اعتبرتها ملاكاً عذباً اعتاد أن يرفرف بجناحيه لنشر البهجة في أرجاء هذا الكوخ الحقير..

شعر الصبي بفيض من الحزن لأجلها، لكنه فضل الإصغاء على قول كلمات مواسية عقيمة..

استرسلت العجوز ويدها الشبيهة بغصنٍ عتيقٍ كثير العروق على رأسها كأنما تولول:

ـ خطفها الموت بسبب حمى لعينة، لما ألمّ المرض بها لم أتمكن حتى من استقدام الحكيم ليراها لأني مقعدة، كان عليّ مراقبتها وهي تموت فحسب دون أن أملك بذل شيء لأجلها..

إنك أول آدمي يقع بصري عليه يا بني منذ سنين طويلة.. طويلة للغاية.

لم أصدق سمعي المنهك! ابن آدم أخيرا بعد كل تلك السنين المضنية؟ أتصدق أن عجزي قد أوصلني إلى حد دفن حفيدتي الغالية أسفل المقعد الذي اجلس عليه؟ قطعة غالية من فؤادي ترقد أسفلي!

ارتعش بدن (حسن) حين تخيل الفكرة القاتمة بأن ثمة ميتٍ مدفونٍ داخل هذا الكوخ المقبض..

ترى كيف تمكنت تلك العجوز البائسة من البقاء حيةً كل تلك السنين المزعومة بحالتها تلك؟ أوليست معجزة حقيقية يعجز المرء عن تصديقها؟!

ثم انتابه قلق عارم مباغت..

كانت نيران المدفأة تعابث ظله على الجدار الذي خلف ظهر المرأة.. ظله

هو والمقعد الذي كانت المرأة جالسةً عليه.. فقط!

سمعها تتمتم منهنهة وهي تمد كفها له:

ـ تعال وقبل كفي كما كانت حفيدتي الراحلة تصنع، دعني أشعر أنها قد عادت إلي!

ـ لكن يا جدة..

ـ أليس ذلك ما تصنعه مع جدتك؟ الصبي المهذب يقبل يد جدته دائما.

لمح أظافرها التي صعدت من وتيرة قلقه، فهي سوداء طويلة ومعقوفة كالمخالب.. إنها تجعل الدنو منها كالدنو من مخالب حيوانٍ مفترسٍ!

ـ "اقترب يا بني ولا تخف.."

ـ "لست خائفاً.."

ـ "إذن أثبت لي ذلك!"

أتلك رنة استهزاء التي التقطتها أذنه أم ماذا ؟!

دنا من المرأة ببطء وحذر، وحينما تناول كفها المخيفة بين أصابع يده الصغيرة تنفس الصعداء كأن هماً ثقيلاً قد انزاح عن عاتقه.

ـ "يا لك من صبي مهذب!"

مال بوجهه كي يطبع قبلة على ظهر كفها المغطى بشعيراتٍ بيضاء خارجةٍ من جلد مبرقشٍ ببقعٍ بنيةٍ منفرةٍ..

وهنا أبصر ما جعل شعر رأسه يتصلب.. أبصر ذيلا عملاقا كأذيال السحالي يتدلى من وراء العجوز ويتلوى هنا وهناك!

ـ "ضجرنا من هذه الحكاية فهي للصغار فقط!"

قالها (منذر) محدقا بمن حوله، فوجدهم جميعاً في صفه عدا صبياً واحداً أشقر الشعر كان يصغي بشتى جوارحه، وقد ضايقه أمر (منذر) كثيرا، فصاح به مغتاظا:

ـ اجلس فأنا راغب بسماع باقي هذه الحكاية.

ـ لا توجه لي أمرا يا (يزن)، ثم اننا كبرنا على حكايات الغيلان السخيفة هذه..

تبسمت الجدة المتربعة على الأريكة الخشنة، التي لطالما اعتبرتها عرشا ترمق منه وجوه الأحفاد الشغوفة.

قالت متسائلة:

ـ وما الحكاية التي تود سماعها يا (منذر)؟

ـ حكاية.. حكاية (النمر)!

وهنا تصايح الأطفال جذلين:

ـ (النمر)! (النمر)! حكاية (النمر).

صاح (يزن) ساخطاً:

ـ لكننا سمعناها عشرات المرات..

ـ ونحن سمعنا حكاية (حسن) وكوخ الغيلان مائة مرة..

ـ أريد سماعها للمرة الألف!

ـ ونحن نود سماع حكاية (النمر) للمرة المليون!

تكلمت (سلمى) مستغلة ميل (يزن) لها، فقالت برقتها المعهودة:

ـ إنه رأي جماعي يا (يزن)، لا أحسبك تخرج عنه.

استسلم كيان الصبي على الفور بعدما كان بركانا يهدد بالغليان، مما حدا بلبنى لأن تقول بمكر:

ـ ليت (سلمى) نطقت منذ زمن!

ـ ما الذي تعنينه؟

واحتد (يزن) ثانية، فنهضت شقيقته الكبرى (خديجة) المتزوجة من شقيق (منذر)، حاملة طفلتها للمهد بعدما أرضعتها، قائلة وإصبعها على شفتيها الباسمتين:

ـ اهدأ أيها الخال الصغير، قد نامت بنت أختك بعسر..

ـ خرسنا وأمرنا لله!

تبسم (منذر) بسمة نصر استفزازية شاركته (لبنى) فيها، في حين بقت (سلمى) على رقتها الحانية كملاك صغير لطيف..

صاح (يزن) في وجه (لبنى) وقد عجز عن كظم غيظه:

ـ أنت تميلين إلى (منذر)!

تلون وجه الصبي بحمرة خفيفة وسخريته آخذة بالاضمحلال، لكن الصبية رفعت صوتها قائلة بجرأة مدهشة:

ـ وماذا في ذلك؟!

ودّ (منذر) لو تنشق الأرض وتبتلعه عقب سماعه لاعترافها الصريح ذاك! ولم يتمكن من النطق بحرف بعدها..

ـ "صلوا على النبي.."

كانت هذه من الجدة التي تضايقت كثيراً من النضج الذي حلّ قبل الأوان بين أحفادها الصغار، فهي تفضلهم صغارا سذج للأبد.

ـ "عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.."

وهدأ الجميع أخيرا للإنصات، فابتدأت الجدة السرد وكلها رضاً عن الدنيا الآن فقط:

ـ عاش في قريتنا (النمر)، شاب قوي لا حدود لعناده.. امتلك والده الفلاح دنمات زرع بها الزيتون، لكن (النمر) لم يهو الفلاحة قط، فبحث مطولا عما يمكن أن يرضى له بعضا من طموحاته، إلى أن ارتحل أخيرا لإسدود الواقعة شمال شرقي (غزة) حيث السكة الحديد...

اشتغل في السكة بضعة أعوام، تعرف في أثنائها على معلمة في مدرسة للصغار، أحبها وأحبته، فتزوجا وحملت منه..

لكن القدر لم يكن يخبئ لهما سوى الهول والآلام والكرب..

كانت زوجة (النمر) تقضي إجازة الحمل عند أهلها في (دير ياسين) مسقط رأسها، وتصادف أن يكون ذلك في عام ١٩٤٨م المليء بالدموع والدم..

باغتت عصابات اليهود سكان القرية التعساء، فتك المجرمون بهم ثم ألقوا بجثثهم في قبرٍ جماعي معتمٍ داخل بئر القرية، كان عدد الشهداء يناهز الثلاثمائة، وكلهم كانوا من الشيوخ والنساء والأطفال.. رحمهم الله جميعا!

توقفت الجدة الطيبة عن السرد لبرهة مسحت خلالها دمعة كانت تتسلل هاربة من مقلتها اليمنى، فنظر (يزن) لمنذر نظرة حملت كثيراً من الملامة والعتاب، فاستقبلها الأخير واجما وهو يطأطئ رأسه في سكون.

سمعا تنهدات الجدة الصابرة، من ثم واصلت حكايتها الأليمة:

ـ جاء (النمر) ليسمع بالفاجعة ويشاهد الجثث بأم عينه..

كل من رآه أقسم بأنه لم يصرخ ولم ينتحب، لم يتفوه بكلمةٍ واحدةٍ..

حتى عندما وجد زوجه الحامل جثة ملقاة داخل بئر القرية..

حتى عندما اكتشف بأن أحد الزبانية الشياطين قام بشق بطن زوجته مستخرجاً منها طفلها!

إلا أن ما وقع بعد ذلك كان بمثابة معجزة حقيقية، فقد كان الطفل لا يزال على قيد الحياة!

كان ينزف ويبكي بوهن وهو خارج بطن والدته الشهيدة، محمله والده (النمر) إلى حكيم تمكن من إنقاذ الطفل بمعجزة أخرى، وقد كبّر الجميع يومها، وزغردت النسوة كأن ثمة عرس، وقرأ أحد المشايخ على جبين الطفل، ووصفه بأنه مبارك من عند الله بإذنه عزّوجل.. كانت سعادة الجميع بالطفل تفوق الوصف..

لكن (النمر) لم يسعد، فقد قدّ قلبه بحروف اسمه..

جعل هدفه الأوحد إيجاد السفاح الذي أراق دم زوجه التي أحبها بعمق وإخلاص، حتى ولو نبش أرجاء الأرض طولاً وعرضاً بحثاً عنه..

وفي نهاية مطاف بحثه المضني وجد غريمه أخيراً..

قام (النمر) باختطافه وجره معه في رحلة رهيبة إلى وادي (ابن هنوم) الواقع جنوب غرب (القدس).. ويقال أنه صنع ذلك لعلمه أن اليهود يطلقون على ذلك الوادي اسم (وادي جهنم)، لأن فيه موضع العذاب للخاطئين، ولكم يا صغاري إذن أن تتخيلوا مدى خوف اليهودي المجرم ورعبه لما أبصر الوادي المقفر..

ربطه (النمر) إلى جذع شجرة سوداء يابسة، تنعق على أغصانها الغربان وتحوم من فوقها العقبان، تاركا إياه مأدبة للطيور الجارحة!

ومن يومها تحول (النمر) لأسطورة..

أكثر النسوة أطلقن اسمه على أطفالهن الرضع، وبين الرجال صار مضرب الأمثال في القوة والإقدام..

بحث عنه اليهود لفترة من الزمن دونما جدوى، فقد أخذ طفله ورحل كأنما الأرض انشقت وابتلعته..

يقول (يزن) سائلاً ذات السؤال وقد احتوته عوالم الحكاية كالعادة:

ـ وأين أراضي (النمر) وابنه اليوم يا جدتي؟

ـ يقال يا صغيري إنه عاد إلى (إسدود).. آخرون قالوا إنه استشهد برصاص اليهود في عملية ما..
لكن ثمة رواية لربما كانت الأقرب للصواب لكثرة الذين تناقلوها..

تقول تلك الرواية بأن (النمر) لا زال حيا يرزق، وأنه وولده وجدا مستقرا لهما في (تل الشوك)، حيث عيون (المدوع) الباعدة نصف كيلومتر جنوبي غرب القرية.. في سنة الـ٤٨ دمر اليهود القرية وقاموا بطرد سكانها، لكنه تمكن بوسيلة ما من العيش هناك.. كثيرون كرروا ذات الرواية، وأقسموا بالعلي العظيم أنهم رأوه، لكن للأسف لا أحد يملك الحقيقة كاملة..

ثمة أيضاً من يقول انه ليس (النمر) بل شبحه! لأن كل من رآه أكد بأنه لم يره إلا ليلاً!

ثم ان الجدة رمقت عيون الصغار المتسعة لهول الحكاية، قبل أن تقول بأريحية بدت مضحكةً قليلاً:

ـ وتوتة توتة فرغت الحدوتة، ولو كان (أبو عاصي) قريباً لجلبت من عنده صحن زبيب.
قوموا للنوم فقد طال سهركم الليلة..

حكاية فداء وإبراهيم

(جنين) المدينة الممزقة أوصالها بساطور الاحتلال الغاشم..

استردها (صلاح الدين الأيوبي) من الصليبيين سنة ٥٨٠ هجرية، وكان لها تاريخ كإقطاعية من إقطاعات الظاهر (بيبرس) أيام المماليك..

سنة ٧٤٨ هجرية داهمها وباء رهيب فتك بجميع قاطنيها عدا رجلٍ واحدٍ عجوزٍ..

واليوم يداهمها وباء أشنع..

من الحاجز العسكري غرب المدينة تقترب سيارة (إبراهيم)، الذي يقودها وعينه على بطن زوجه (فداء) الحامل بطفلهما المنتظر.. كانت (فداء) رقيقةً رقة

العشب الأخضر الهش، لذا كادت عينا زوجها أن تفيضا دمعا وهو يراقبها تئن بألم، عرقها يسيل بغزارة المطر، ومع ذلك حاولت ببسالة منحه بسمة مطمئنة.

قالت له وهي تقبض على راحته بكفها:

ـ لا تجزع، سنبلغ المستشفى بإذن الله في الموعد الملائم.

يقول لها وعيناه تذرفان الدمع دونما توقف:

ـ أرى حاجزا وضعه أولاد الحرام، وأخشى أن..

وضعت أناملها على شفتيه مهدئة من روعه، وهمست له:

ـ بإذن الله!

لكنه بقي على حاله رغم هزة رأسه الموافقة، ففكرت بسبل أخرى لتهدئته..

ـ "ماذا نسميه لو جاء صبيا؟"

ـ "كما تشائين.."

ـ "كيف ذلك؟ قلت لي إنك ستسميه على اسم والدك.."

ـ "لم أعد أذكر شيئاً.."

كان يخاف عليها جدا، وهي مدركة لذلك تماماً..

توقفت السيارة أمام الحاجز، وترجل (إبراهيم) من سيارته لإنهاء الأمر مع الجنود..

عاودتها الآلام مجددا، فقررت المقاومة والصمود، لن تطلق أنة واحدةً..

قالت متلمسة بطنها برفق:

ـ صبرا يا صغيري، ليس هذا بالمكان المناسب للخروج..

رأت زوجها يحادث أحد الجنود وهو يشير نحوها، فأنزلت النافذة كي تنصت..

سمعته يكرر كلماتٍ بالعبرية التي لا تفهمها وتمقتها:

ـ روفييه، ييلد (طبيب، طفل)

ازدادت آلامها، وشعرت بسائل ينساب ليبلل ثيابها والمقعد!

شاهدت الجندي يتجاوز زوجها متجها إلى سيارتهما لإلقاء نظرة متفحصة عليها، واستطاعت إدراك الغضب الذي اعترى ملامح (إبراهيم) لذلك، فبدا وكأنه يقاوم رغبته العارمة في تحطيم رأس الجندي بقبضته المجردة..

نظر الجندي إلى بطن (فداء) مطولا، ثم توجه لزوجها ليتبادل بضع كلمات معه، احمر وجه (إبراهيم) إثرها، وأسرع إلى السيارة مشعلا محركها قائلا بنبرة توحشٍ:

ـ الخنزير!

ـ ماذا؟ ماذا هنالك؟

نطقت بها وعرق جلد جبينها يتصبب بكثافة، فردّ عليها وهو يتراجع بالسيارة:

ـ يريد أن تكشفي له عن بطنك كي يتأكد من أنه حمل.. النجس الخنزير! إن الموت لأهون!

ـ (إبراهيم) إنني.. إنني ألد!!

ـ ألطف بنا يا الله!

أوقف السيارة مترجلاً منها، وجرى جرياً صوب الحاجز..

كان يحاول مع الجندي مرة أخرى، والأخير متسمر على بروده المستفز..

وفي النهاية عاد برفقة الجندي، وقال لها بعينين مقهورتين:

ـ دعيه يرى ليتأكد، ألا لعنة الله عليهم أجمعين!

سارعت بالكشف عن بطنها وهي تئن، داعية في سرها أن ينهي الله العذاب سريعا..

تأمل الجندي بطن (فداء) المنتفخ مبتسما ابتسامة فجة.. ثم مدّ يده بوقاحة خيالية قائلا:

ـ يافيه ييلد! (طفل جميل)

كانت أصابعه ترفع رداء (فداء) لفوق.. ثوبها الداخلي بات جليا للأبصار، وابتسامة حيوانية تغزو وجهه الكريه..

وفي الثانية التالية رأت زوجها يرقد فوق الجندي الذي بطحه أرضا بقوة

اندفاعه وهيجانه، ويكيل له لكمات ضارية هادفة إلى قتله، قبل إطباقه بأصابعه كلها على عنق الجندي كالكلابات، محاولا انتزاع روحه بخنقه وهو يزمجر..

صرخت فجأة:

ـ احترس يا (إبراهيم)!!

لكنه لم يسمع أو ينتبه، فكانت النتيجة بأن تلقى من الجنود الذين يحرسون الحاجز دفقة من الأعيرة النارية في ظهره..

سقط متخبطا في دمائه، فأطلقت صرخة فزع وهي تصيح باسمه.. أراد أن يلفظ اسمها، أن يرفع كفه اتجاهها، لكن الموت سارع بخطف روحه..

- "(إبراهيم)!!"

صرخت كالمجنونة.. صرخت حتى شعرت بحنجرتها تكاد تثب من حلقها..

سمعت صوت إطلاق الرصاص من جديد، فلم تصدق، هؤلاء الجنود يطلقون النار على سيارتها!! مستحيل أن يكونوا بشراً!!

- "وحوش!! وحوش!!"

ورغم ذلك خرجت من السيارة، ورمت بنفسها فوق جثة زوجها وهي تنشج وتشهق..

فجأة، تصاعد إطلاق نار مضاد، ثم سمعت (فداء) صوت انفجار قوي شاهدت نيرانه بغشاوة مؤلمة، فقد كان ذلك آخر ما شاهدته قبل فقدانها لوعيها تماما من هول ما حدث..

- "وحوش!! وحوش!!"

هل كانت تهذي؟ هي إذن في الحياة باقية.. من دون (إبراهيم)!

انفتح جفناها أخيراً، فتمكنت من رؤية والدتها التي أنهكها البكاء، ولم تصدق الأخيرة أن ابنتها قد استفاقت أخيرا..

ـ "فلذة كبدي!"

ـ "أماه، قد قتلوا (إبراهيم).. أين (إبراهيم)؟"

وتسيل دموع الأسى والقهر من جديد، ويستمر هذيانها ثلاثة أيام بلياليها..

وحين بدأت تسترد عافيتها برحمة من الرحيم، علمت من أهلها أنه قد رزقها بصبي..

بكت كما لم تبك من قبل لما حملت وليدها، وبرقتها الأسرة همست:

ـ إنهما عينا (إبراهيم)!

هطلت دموع جميع من كانوا حولها لما سمعوا ما قالته، في حين استرسلت

وهي تلثم جبين رضيعها النائم بعمق ودعة:

ـ يجب أن يكبر بسرعة كي ينتقم لوالده.. يجب!

حكاية الأستاذ عامر

بجانب وجهه الأيمن ينظر الأستاذ (عامر) إلى وجوه الصغار، ويطيل النظر ببسمة جامعة ما بين الهدوء والوجوم.. وسامته فائقة القدر، لحيته المشذبة السوداء تدور بأناقة حول فمه، يده تداعب ربطة عنقه الكحلية التي يرتديها على القميص الأزرق السماوي من دون بدلة، ثمة دبلة فضية تلتمع في بنصره رغم فقدانه لزوجته منذ مدة..

ولكن حينما يستدير ليعطيهم جانبه الأيسر، يتمكنون من رؤية عينه البيضاء كاللؤلؤة، والتشوه الناجم عن حرق ما!

إلا أنك حين ترصد وجوه وعيون التلاميذ لا تجد واحداً منهم يبدي أي انفعال بشأن ذلك، وكأن المعلم الشاب سليم الوجه تماما، ربما لعلمهم بأنه قد قضى فترة طويلة من الزمن داخل أحد المعتقلات..

ربما لعلمهم بأن زبانية ذلك المعتقل قد عبثوا بوجهه قليلاً..

أو لعلمهم بشجاعته، وفخرهم بكونه معلمهم..

يقول وهو يجول بين طاولات تلاميذه ويداه خلف ظهره كأنه كولونيل يجتمع بعدد من جنوده:

ـــ كان الظهور الدموي للعصابات الإرهابية الصهيونية قد برز في (فلسطين) على يدي (مناحم بيجن)، الذي ترأس وزارة (إسرائيل) في السبعينات، وترأس كذلك واحدة من أخطر العصابات الدموية، "الأرجون"..

قامت "الأرجون" و"شتيرن" ـــ وهي عصابة إرهابية أخرى- بعملياتٍ تخريبيةٍ عديدةٍ، منها نسف الجسور الرابطة بين (فلسطين) والدول العربية المحيطة بها.. كانت نشاطات العصابتين ـ وخصوصاً "شتيرن" ـــ مركزةً بكثرة على البريطانيين، أما

عـصابة "الهاجانـا" ـــ عـصابة إرهابيـة ثالثـة ـــ فقـد كانت تخرب مدعية المقاومة..

انتشر كابوس التفجيرات بكثرة بين العرب عن طريق تلك العصابات المخربة.. كان الناس يتوقعون الموت في أية لحظة، ألغام، قنابل، رصاص، أي شيء يداعب قريحة اليهود العبقرية في القتل والتدمير.. كيف لا وهم الذين كانوا يقتلون الأطفال دونما تمييز ؟! سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين ؟! بعد أن يتسلوا بتعذيب أجسادهم واستنزاف دمائهم لصنع الفطير المبارك؟ الذي لابد لكل يهودي متدين أن يأكل منه، وهي عادة مسجلة في تلمودهم سيء الذكر!

ـــ "مثل الخفافيش والخنازير، يقتاتون على الدم والفضلات!"

قالها صبي اشتهر بشقاوته في الفصل، فتبسم البعض على مضض..

تابع الأستاذ الشرح كأن شيئا لم يحدث:

ـ انضمت الآثمتان (أمريكا) و(بريطانيا) للصهاينة سنة ١٩٤٦م، وهكذا وجد الشعب الفلسطيني نفسه بين ثلاث قوى تعمل فيه الذبح والتعذيب، قاموا باغتصاب الأراضي ونسف المنازل وحتى الأكواخ الطينية.. الأمم المتحدة لم تجد نفعا، كذلك الحال مع مجلس الأمن، أما عن العرب فحدث ولا حرج!

ـ "أوهوووو.. على كيفك!"

قالها ذات الصبي مستهزئا، فتبدت بسمات سخرية مريرة هذه المرة..

ـ "كانت الأعمال الإرهابية حافلةً في سجل الصهاينة، منذ الاعتداءات الكثيرة على العرب في عام ١٩٣٦م، وحتى عمليات النسف التي كان آخرها تدمير المكاتب الرئيسية لإدارة حكومة (فلسطين) المدنية عام ١٩٤٦م..

وفي نفس العام عادت عمليات أشد وأقوى كانت عصابتا (الأرجون) و(الهاجانا) نجمتيها، واستمرت تلك العمليات الإرهابية الرهيبة حتى عام ١٩٤٧م..

ارتكب الصهاينة عشرات المجازر المروعة بحق الشعب الفلسطيني.. الإرهابيون "البالماخ" قتلوا أطفال ونساء وشيوخ بلدة (حساس)، وقد بلغت الاعتداءات وعمليات النسف مبلغهما في كل من قريتي (يازور) و(سعسع)..

لكن الفاجعة الحقيقية كانت في (دير ياسين).. تلك القرية الصغيرة الواقعة على ربوة في غرب مدينة (القدس)، وحولها عدد من المستوطنات، مجرد قرية بريئة عدد سكانها حوالي الألف نسمة..

وبتحريض من (الهاجانا) وزعيمها المجرم (مناحم بيجن)، وقعت مذبحة خلدها التاريخ لهولها.."

- "(بيجن) اللعين!"

- "عثر على عشرات الجثث لأطفالٍ وشيوخٍ ونساءٍ مبعثرة هنا وهناك، وشعر اليهود أن عليهم إخفاء آثار جريمتهم البشعة، فوضعوا جميع الجثث في بناية وقاموا بنسفها..

كان تاريخ ١٩٤٨م حافلا، فقد عادت فيه مجازر وحوادث أخرى جديدة، وارتفع معدل القتلى، وبرزت أسماء كثيرة، قرية (سريس)، (أبو شوشة)، (قالونيا).. الخ

وظهـرت مـرةً أخـرى مـذابح جديـدة، مثـل مجـزرة (الرملـة)، ومجـزرة (الدوايمـة) الواقعـة عنـد مدينـة (الخليل)، والتي رفض أهلها مغادرة قريتهم، واعتكفوا داخل الكهوف في الجبـال.. ووصلت المصفحات بقيادة (موشى دايان) الإرهابي الكبير صاحب العين الواحدة، الذي هاجم القرية في منتصف الليل، فقتل ورجاله كل من وجدوه، ونسفوا منزل المختار، وفي الصباح قتلوا كل الشيوخ الذين أرادوا الصلاة، وعرفوا أماكن الكهوف التي اختبأت فيها جميع العائلات الفلسطينية، فقتلوهم داخلها بلا رحمة.."

ـ "لو أن (دايان) فقد عينان!"

ـ "قتل كذلك كل من ضبط عائداً إلى القرية لكي يأخذ طعاماً وشراباً أو ملبساً، وألقيت جثثهم في بئر القرية، لأن اليهود رأوا أن كل جريمة يرتكبونها قد تجلب لهم المتاعب، فكانوا يعمدون دوما إلى إخفاء كل أثر للجثث، ولجرائمهم بحق الأهالي الأبرياء.."

فجـأة يـصمت الأسـتاذ.. يـتمعن في وجـوه تلاميـذه متفكرا هنيهة، قبل إنشاده متحسرا:

- "هاتي صلاح الدين فينا

وجددي حطين أو شبه حطينا"!



حكاية منذر ولبنى

سار (منذر) و(يزن) برفقة كل من (لبنى) و(سلمى)، على سبيل تأمين الحراسة لهما!

إن المسافة لهي أكثر من عشرة كيلومترات، يقطعونها كل يوم ذهاباً وإياباً لعدم توافر وسائل المواصلات..

في رحلة العودة لابد من مشاهدة دبابة إسرائيلية تقطع عليهم الطريق، أو حاجزا تحرسه ثلة من الجنود مدججة بالسلاح، مما يرغم الأربعة الصغار على تغيير مسار رحلة العودة، وبذلك يزداد عدد الكيلومترات..

قال (منذر) وهو يطالع شعارات جديدة طليت حديثاً على أحد الجدران

ـ وكانت تتوعد اليهود بالويل ثم الويل:

ـ اقتربت عطلة الربيع كثيرا، فما الذي ستصنعونه إذن؟

ردّ عليه (يزن):

ـ أنتظر الإجازة بفارغ الصبر، كي أبدأ مع بدايتها أولى محاولاتي الجادة في الكتابة..

ـ كتابة؟!

وتلون وجه (منذر) قبيل هتافه مستهجناً:

ـ أين أضعت عقلك؟ ستضيع جل المرح في الكتابة؟

ـ وما بالها الكتابة؟ أهو عيب أن يكتب المرء؟

ـ ألم تشبع من كتابة الدروس والواجبات؟

ـ والآن سأجرب كتابة الحكايات والروايات!

قالت (سلمى) مبتسمةً:

ـ أعتقد أنها تجربة مسلية..

ردّت عليها (لبنى) متهكمة:

ـ وأنا أعتقد أنها مملة!

اغتاظ (يزن) من كلامها، فصاح محتداً وهو يوجه كلامه لمنذر:

ـ وما المرح الذي أكاد أفوته علي؟

كل الوقت يضيع في اللهو، ولولا حكايات الجدة لضاع كلياً.

أجابه (منذر) والتماعة غريبة تبزغ في عينيه العسليتين:

ـ هذا الوضع مختلف، ففي هذه المرة سيكون حافلا بالإثارة يا صاحبي.

ـ ماذا تقصد؟

سارع يهمس في أذنه بعدما تنحى به جانباً بطريقةٍ سريعةٍ:

ـ سأعلمك لاحقا..

صاحت (لبنى) غضبى:

ـ ما هذا؟ أسرار علينا؟

ـ أنتن الفتيات لديكن أسراركن أيضاً، ولم نطالبكن يوماً بمعرفتها ثم إن عالمنا حافل بالأسرار التي لا تصلح للفتيات!

وهنا تبسمت (لبنى) بمكر أريب..

ـ "كالسجائر؟"

امتقع وجه الصبي وكأنه يواجه أبشع اتهام، وصاح:

ـ ماذا عنها؟

ـ قد يهم والدتك أن تعلم بأمر تدخين ولدها السجائر سراً!

ـ لن تصدقك..

ـ خالتي لا تكذبني أبدا، ثم ان ذلك أمر يسهل التيقن منه!

هتف كمن أسقط بيده:

ـ أيتها الواشية!

تجاهل (يزن) عراكهما ليلتفت إلى (سلمى) كي يسألها:

ـ وأنت يا (سلمى)؟ ما هي مشاريعك في العطلة؟

ابتسمت بسمتها الحلوة مجيبة:

ـ سأذهب ووالدتي لزيارة خالتي (فداء) للاطمئنان عليها وعلى طفلها..

صاح منزعجا:

ـ لكنها في (جنين)..

ـ لا تقلق، لن أغيب أكثر من أسبوعٍ واحدٍ..

ـ كثير!

قالها بخيبة أمل وعيناه تتأملان ملامحها، كأنما يفتقدها منذ الآن، في حين تساءلت (لبنى):

ـ ألم يعرفوا حتى الآن من الذي دمر حاجز الجنود؟

ـ لم يعرفوا..

قال (منذر) في إعجابٍ صميمٍ:

ـ يا له من شجاعٍ!

ومن ثم انقلبت نظراته إلى مقتٍ صريحٍ..

نظر ثلاثتهم إلى حيث ينظر، فأبصروا جنديا إسرائيليا يحمل السلاح وسيجارةً يدخنها متكئاً على أحد الجدران..

همس (منذر) بكراهيةٍ:

ـ يا له من وغد! البارحة قام بصفع امرأة مسنة وضرب طفلا بكعب بندقيته..

وتنفس الهواء في خلاص، ثم قال مخاطباً إياهم بشيء من قساوةٍ:

ـ أحقاً ترغبون بمعرفة مخططي للعطلة؟

هتفت (لبنى):

ـ دون أدنى شك!

التفت (منذر) إلى الجندي محدجا إياه بنظرةٍ طويلةٍ، قبل توجيه كلامه ليزن:

ـ سأريكم عينة صغيرة!

أسرعوا خلفه حيث اقتادهم إلى مبنى قديمٍ بدرجاتٍ حجريةٍ من الخلف، فسارع بارتقائها وحذوا حذوه..

سأله (يزن) وأنفاسه تتلاحق:

ـ ما الذي ستفعله؟

ـ انتظر وسترى..

وفوق المبنى القديم شبه المهدم والذي يعلو طابقاً واحداً، اقترب الأربعة من السور الحجري بحذر..

أطل (منذر) بوجهه من فوق السطح ليتأكد من أن الجندي أسفله تماماً، وبأنه لم يبارح مكانه..

عاود الجلوس مع رفاقه المختبئين خلف السور، فسأله (يزن) وهو يلهث خوفاً:

ـ ماذا ستصنع أيها المتهور؟!!

وهنا تناول (منذر) حجرا لا بأس بحجمه قائلاً لثلاثتهم:

ـ ما الذي تظنونه؟ سأقتل الوغد.

أسرعت (لبنى) تتشبث بذراعه هامسة في جنون متضرع:

ـ أيها المخبول! سيقتلونك بدمٍ باردٍ!!

ـ وكأنني أبالي!

قالها مستهينا، فهمس له (يزن) منفعلا:

ـ هل جننت يا (منذر)؟

ـ أتسمي محاربتي لعدوي جنوناً؟ إذن أجل.. قد جننت!

ـ يا لك من أحمق مجنونٍ! إنك تعرضنا جميعاً للخطر!

همست له (سلمى) وهي تكاد تبكي:

ـ أتوسل إليك يا (منذر) بأن تخزي الشيطان، ولنعد لديارنا..

قال باستهزاء وكأنه يخاطب نفسه:

ـ أخزي الشيطان؟ إنني سأقتله فحسب!

نظرت إليه (لبنى) بعينين متقدتين هامسة بحنق:

ـ سأخبر خالتي بألاعيبك هذه!

ـ كما لو كنت مكترثا..

ـ الآن فقط لم تعد تكترث أيها الكاذب؟!

ـ هذا لن يغير شيئا مما انتويت فعله..

فما ان هم بالنهوض لتحقيق مراده حتى أمسكت (لبنى) بكفه القابض بالحجر، فلثمتها والدمع ينحدر من عينيها كحبيبات الندى، هامسةً برجاءٍ وتضرعٍ:

ـ أستحلفك بالله ألا تفعلها لو كان لي معزّة عندك!

تبدى شرود ذهن وتردد في سحنة (منذر)، وقد راقب دموع الصبية بصمت العاجز عن الإتيان بأية ردة فعلٍ..

وفي النهاية ترك الحجر يسقط من قبضته، التي أبرز منها أنامله ليمسح بها دموعها السخية برفق قائلاً بوجومٍ:

ـ هلموا بنا نرجع..



حكاية يزن وسلمى

في داره و داخل حجرته على ضوء مصباح الزيت الخافت، فتح (يزن) درج مكتبه الصغير مستخرجا منه كراسة خضراء أتبعها بأخرى حمراء..

فتح الحمراء أولا، وبتمهل وبعينين براقتين قرأ ما دونّه على الورق..

"في ليلةٍ ماطرة نشر بها البرق أجنحته اللامعة في الأجواء، وصرخ معه الرعد حتى اهتزت لدوي هزيمه الأرجاء، انطلقت عربة سوداء قوطية المظهر عبر المطر والغابات والوديان، ومن خلال الأسقف المتهالكة للأكواخ والجدران العالية للقصور..

بعض أقوياء الإيمان تمكنوا من رؤية تلك العربة الرهيبة التي يجرها بسرعةٍ خارقةٍ أربعة جيادٍ سوداء

تصهل وكأنها قطيع كامل مطلق السراح في بئر الوادي، فتلوا الأدعية بعد أن استعاذوا وبسملوا، في حين مرت العربة بجوار البعض الآخر مباشرة، أولئك الذين شغلتهم الدنيا بمتاعها الزائل، فكأن نسمة هواء بالغة البرودة مرت بهم، وبالتأكيد لم يتمكن أحدهم من رؤية العربة المسرعة..

مرت العربة بالمساجد والكنائس، بالمقابر والأضرحة، بالفقراء والأغنياء، ولم تتوقف لشيء أبدا..

والرجل الصالح صاحب اللحية البيضاء الكثة وعصا البيلسان الغليظة لم يكن بعيداً..

كان يسير ملتفاً بردائه الرمادي البالي، ومتكئاً على عصاه التي تنافسه في العمر، مواجهاً الطقس العاصف والأمطار المنهمرة بغزارة..

يقال بأنه فعل الخير بعدد شعيرات لحيته البيضاء الطويلة، وقد كان يملك وسطها شعرة سوداء واحدة فقط، بسبب خطيئة وحيدة ارتكبها في حياته بأسرها، ولأجلها تقشف وزهد، وارتحل في أرض الله الواسعة ناشدا التوبة والخلاص..

لأجل ذلك الرجل الصالح الحكيم توقفت العربة السوداء أخيراً..

توقف الرجل الصالح أيضاً، لكنه لم ينظر باتجاه العربة أبدا، بقي فقط واضعاً يده على رأس عصاه، متأملا الأفق ببصر شارد لا يبتغي سوى مرضاة ربه ورحمته، فلم يكن ليرهبه شيء بعد ذلك أبداً..

ومن فوق العربة، وثب الرجل الطويل المتسربل بثوب كمسوح الرهبان، رافعاً سوطه الطويل الذي كان يلهب به ظهور جياده كي يضرب في مشارق الأرض ومغاربها، وجهه غارق في العتمة ـ والله وحده يعلم ما إذا كان يمتلك وجهاً أم لا..

مدّ كفه ذات الأنامل الطويلة والمنتهية بمخالبٍ سود حادةٍ، وبصوتٍ كصدى آتٍ من أعماق القبور غمغم:

ـ السلام على عبدالله الصالح..

ـ وعليك السلام يا عبدالله الطالح!

فلو أن له وجها لارتسمت أقصى درجات الذهول على ملامح حوذي العربة المتوقفة، في حين بقى الرجل الصالح شارد النظرات غير مبالٍ!

أنزل الحوذي كفه، وبنبرة تساؤل غمغم:

ـ لم قلت ذلك يا أطيب الناس؟

ـ لأنك سبب ارتكابي لخطيئتي الوحيدة، هذه هي الأولى..

ـ وما الثانية؟

ـ إنك ملعون من الواحد الأحد، لكنك ـ أيها التعس ـ لا تدر عن ذلك شيئا!

همس الحوذي برنة استهزاء:

ـ وأنت الذي يدري أيها الإنسي؟

ـ الله وحده يدري..

ـ أنت كذلك تدري، وإلا لم قلت ما قلته عني؟

آثر الرجل الصالح الصمت، فاتجه الحوذي إلى جوادٍ من جياده وبقسوةٍ صفعه!

سأله الرجل الصالح متابعا المشهد بأسى:

ـ لم صنعت ذلك مع الحيوان المسكين؟

ردّ الحوذي بنبرة زهوٍ فاتحاً ذراعيه:

ـ لأنه لم يطأطئ رأسه أرضا في حضرتي كما صنع إخوته!

ـ وما أنت؟

ـ أنا قابض الأرواح الذي لا يلين، أنا الهلاك القاسي أو الرحيم!

ـ كذبت والله!

ـ كيف جرؤت أيها العبد الحقير؟

ـ أنا عبدالله، لا عبدك أيها الشرير.. ما أنت بالموت وإنما شيطان خنزير!

قهقه الحوذي بعقيرة عالية، ولما كفّ تساءل مستنكرا:

ـ وكيف علمت ذلك أيها المتحذلق المغرور بعلمه وبحكمته؟!

ـ شاء الله أن أكشف كذبك أيها الأفاق!

ـ قل لي أيها الرجل، ما الذي يمنعني الآن من جعلك تركب هذه العربة بدلاً مني؟

ـ الله..

نطقها الرجل بإجلالٍ وطمأنينة، فظهر امتعاض في صوت الحوذي لما قال:

ـ إذن فدعني أرسلك إليه..

وتقدم خطوتين تجاه الشيخ الذي أغمض جفنه متمتماً:

ـ إذا كان ذلك قدري وتلك مشيئة الله فليكن..

توقف الحوذي وسكن بمكانه، كان حانقاً، لكن من يستطيع رؤية الحنق على من لا وجه له؟

إنما ظهر الحنق في نبرة صوته لما قال رافعاً كفه:

ـ منذ قرونٍ وأنا أدور بهذه العربة اللعينة باحثاً عن روحٍ جديدةٍ صالحةٍ لولوج الجحيم، تلك رغبة سيدي ومولاي..

ـ من؟ (إبليس) اللعين؟

ـ كيف تجرؤ أيها الشيخ التعس؟! كيف تجرؤ على شتم مولانا المبجل؟!

ـ هو مولاك لا مولاي..

ـ ألا تبجل مولاك؟

ـ لا أبجل سوى إلهي، أما مولاي فله حق السمع والطاعة، إلا في معصية الخالق..

ـ تبا لك أيها العجوز المخرف! أتساءل عما دعاني إلى التوقف من أجلك..

ـ ربما توقفت لإلقاء التحية!

ـ كلا، إني لا أتوقف لأجل ذلك أبداً..

نظر الشيخ إلى الحوذي أخيرا، وبلهجةٍ ذات مغزى قال له:

ـ لربما تنشد طريقا للخلاص، وتوقفت كي تسألني عنه!

أراد الحوذي قول شيء ما، لكنه بدا وكأنه تراجع عن قوله مفضلاً الصمت، فاسترسل الشيخ الصالح:

ـ أترى تلك الشعرة السوداء في لحيتي؟ لقد نلتها لقاء خطيئة لدى البشر بسيطة، لكنها عند الله عظيمة..

جبت الأرض داعياً الله أن يتقبل توبتي، فعلت أقصى درجات الخير ـ والله وحده أعلم بذلك ـ ثم قمت داعياً إلى الله أن يجعل تلك الشعرة بيضاء كعلامةٍ على تقبله توبتي، لكنه لم يفعل للأسف..

تساءل الحوذي باهتمام:

ـ كل تلك الأعمال الصالحة ولم يرتح قلبك أو يهنأ؟

ـ ولن يرتاح أو يهنأ قبل أن يتقبل الله توبتي ويمنحني أمنيتي..

تبدت سخرية مريرة في صوت الحوذي عندما قال:

ـ وتريد من أمثالي البحث عن طريق للخلاص أنا الذي بقيت لقرونٍ طوالٍ أجمع أرواح الضلال لسيد الضلال؟

نصيحتي لك أن تنزع شعرتك السوداء بنفسك وبلا تردد..

ـ ونصيحتي لك ألا تتسرع بإصدار الأحكام، وتكف عن الطيش المؤدي للهاوية المهلكة، فما أكثر البشر الذين زلت أقدامهم وهووا في قعر الجحيم من وراء أفاعيل الطيش وزلات الألسن، وبالسعي ابتغاء لمرضاة الله ورحمته، تجد طريقاً للتوبة ما دمت تنشدها إلى تلك الدرجة الصادقة والنية الخالصة..

ـ محاولة لا بأس بها أيها الرجل الطيب، لكن مثل تلك الأمور تناسب طبائع البشر أكثر..

ـ لازلت على وتيرتك المتشنجة والمتسرعة، التي تتناسب مع طبيعتك الشيطانية المتقلبة، ولكن سأدبرك..

ورفع وجهه المتغضن، الذي أغرقته ولحيته مياه الأمطار المنهمرة، فقال غير آبه لذلك:

ـ عربتك هذه صارت ملاذا للخطاة..

ولأنها كذلك فسيكون عليك تسليمها لخاطئ آخر كي يتولاها عنك، الأحرى بك أن تجد إنسيا يقوم بعملك، لأنه لن يتمكن من القيام به لأكثر من سنة واحدة، وعندها سينشد التوبة والخلاص، وبذلك نخدع الضال (إبليس)، وننقذ أكبر عدد ممكن من الأرواح الضالة، فما قولك؟

ـ أرى أنها فكرة مجنونة أخرجها عقل لا يفكر بمنطق! إنك تريدني أن أخون مليكي بإيجاد من يحل محلي على مقعد عجل النقل الوهمية الخاصة بأرواح الأضلاء، فإذا كان بشرياً لم يصمد لأكثر من سنة، وابتدأ البحث عمن يحل محله لكي يتوب أيضاً.. وهكذا دواليك؟!

وكيف عرفت أنت مثل تلك الأمور المبهمة على سائر البشر؟

ـ وقل رب زدني علما!

ـ بالأحرى كيف تضمن أن يجد الخاطئ الجديد فرصته للخلاص قبل بداية سنة جديدة؟

ـ عليه ذلك، وإلا علق في وظيفتك للأبد وبلا أدنى فرصة للتوبة!

ـ أرأيت؟ لابد وأنه سيكون خاطئاً أعظم مني ومنك!

تبدى شبح ابتسامةٍ على ثغر الشيخ، وإن بقى صامتا، فقال الحوذي في ضجرٍ:

ـ يا لها من ألغاز! لكني سأجاريك وأمري لإبليس!

ثم قال مصححاً لنفسه ما إن رأى تلك النظرة المزلزلة في عيني الشيخ:

ـ أقصد لله.. أمري لله!

ـ خيرا تصنع، فلا يكون تفويض الأمر إلا لصاحب الأمر..

ـ فما الذي علي فعله الآن؟

ـ الليل لا يزال بأوله، انطلق واجتهد للعثور على آخر ميت قضى أثناء ارتكابه خطيئة كبرى، لكن عليك التنبه إلى أن أمامك فقط من الوقت ما لن يتعدى آخر دقة من دقات ساعة منتصف الليل، فإذا دقت ولم تجده بقيت على وظيفتك هذه إلى يوم يبعثون..

ـ وأين بإمكاني إيجاد ذلك الشبح التعس؟!

أطرق الشيخ برهة مفكرا، قبل أن يستل عصاه ويوجهها للجهة التي أمامه مباشرةً قائلاً:

ـ ابحث هناك، في أرض التين والزيتون، أرض الأنبياء والمرسلين..

ـ أرض فلسطين؟

ـ أرض فلسطين..

ـ أتظن الفرصة سانحةً؟ أقصد هل يوجد أمل لأمثالي من الخطاة؟

ـ إليك آخر نصيحة: لا تقنط من رحمة الله..

بقـي الحـوذي واقفـاً سـاهماً، ثـم قـال وكأنـه يحـادث نفسه:

ـ للمرة الأولى أجرب شعور الخوف!

تبسم الشيخ ابتسامةً واسعةً هذه المرة وهو يرد برضا:

ـ لا بأس عليك، فتلك علامة طيبة، والآن كفّ عن إضاعة مزيد من الوقت وانطلق على بركة الله..

وثب الحوذي في الهواء وثبةً هائلةً جعلته يستقر على مقعده من العربة خلف جياده، وهتف مفرقعاً سوطه في الهواء:

ـ دعواتك أيها الشيخ الصالح، واجعلها خالصةً من القلب..

ثم ألهب بالسوط ظهور الجياد، فعاودت انطلاقتها السريعة بالاتجاه الذي حدد له..

هدأ المطر قبل توقفه عن الانهمار أخيرا، فرفع الشيخ وجهه للسماء متشمماً الهواء البارد، قبل قوله بتضرع:

ـ اللهم إذا كان في ذلك خير له فوفقه، وإذا كان في ذلك شر منه على عبادك فأوقفه!"

تبسم (يزن) راضيا عما كتبه، فتناول الكراسة الأخرى خضراء اللون، وفتحها مقلباً الصفحات المكتوبة، حتى بلغ صفحة بيضاء جديدة، فأمسك بقلم حبر جاف أزرق وابتدأ يكتب:

ـ "جميل أن يشعر المرء أنه رجلٍ، والسبيل لذلك أن تتم معاملته كرجل من قبل الجميع..

ولكي نصير رجالاً علينا إثبات رجولتنا بأفاعيل شجاعةٍ، حتى وإن قمنا بما يعارضه أهالينا، فإن أطفالا تناضل بالحجارة، يعبرون عن الغضب المعتمر بداخلهم، وينفسون عن أرواحهم التي تكاد بأن تزهق.. وإلا كيف لحجر أن يدمر مدرعة؟!!

لكن الحجر بإمكانه قتل ابن آدم..

قال لي (منذر) اليوم لما ذكرنا حادثة ما بعد الظهيرة:

ـ الفتيات يمتلكن موهبة حملك على فعل ما تكره وكأنك تود فعله منذ زمن.. ذلك هو سر قوتهن الحقيقية!

ما كان علي التفوه بحرف أمام (لبنى)، فقد أبرزت اليوم ضعفي اتجاهها..

ـ إنها تهتم لأمرك..

فصمت واجماً.. وعندئذ سألته بخوفٍ:

ـ (منذر)، أأنت جاد بما عقدت العزم عليه؟

ـ كل الجدية..

ـ و(لبنى)؟

ـ (لبنى) لا يجب أن تعرف كل شيءٍ، وأنت كفّ عن قول جميع أسرارك لسلمى..

ـ لكن ذلك خطر..

ـ بل هو منتهى الإثارة!

ـ ماذا لو أمسك بنا اليهود؟ إنهم وحوش غير مروضةٍ مع الصغير قبل الكبير..

ـ لن يمسكوا بنا فلا تقلق..

ـ كيف تكون واثقاً إلى هذا الحد؟!!

ـ أنا أتقن استعمال عقلي!

ـ أترغب بسماع رأيي الصريح يا (منذر)؟ مسعاك لن ينجح أبداً..

ـ ولماذا؟

ـ لأني على يقين من أن عقلي يعمل بأكفأ من عقلك!

ـ أتتهمني بالجهل؟

ـ بل بالجنون..

ـ أتنعت رجولة ما قبل الأوان جنوناً؟

ـ عن أي رجولة تهرف؟ إنه لمن الجنون التفكير أن بإمكاننا محاربتهم..

ـ أتعني ألا قدرة لنا على مواجهتهم؟ إن أطفالا تناضل بالحجارة..

ـ إنهم يعبرون عن غضبهم، ينفسون عن أرواحهم التي تكاد بأن تزهق، وإلا كيف لحجر أن يدمر مدرعة؟!!

ـ الحجر قادر على قتل ابن آدم..

وتأرجحت يد (منذر) في الهواء قاذفة عقب سيجارته التي فرغ منها، صائحا والدخان يخرج مع كلماته:

ـ لقد ضقت ذرعاً بهذا الهراء الذي تقوله، سأنفذ ما عقدت العزم عليه سواء أكنت معي أم لا..

ـ ستلقي بنا في أحضان التهلكة..

ـ يبدو وأني قد أخطأت عندما أطلعتك على سري الأكبر، لابد وأنك ستسلك سلوك الفتيات الواشيات الآن!

ـ تبا لك! لطالما كنت كاتم أسرارك، وسأظل كذلك دائماً..

ـ أظنك ستحتمل الحياة من دوني!

ـ لم أقل كلمتي الأخيرة بعد، أحتاج مدة للتفكير..

تبسم أخيرا وهو يقول باستحسان:

ـ كلام لا بأس به، التفكير لا يبعث على النفور، بإمكانك التفكير، لكن ليس مطولا، فقد عزمنا على البدء قريباً.. أنا ومن معي!

ـ هنالك حمقى غيرنا إذن؟ أمر باعث على الاطمئنان!

ضحك (منذر) قبل أن يقول:

ـ يجب أن نصير رجالاً، هذا هو بيت القصيد، ولكي نصير رجالاً علينا إثبات رجولتنا بأفاعيل شجاعة!

ـ إلى اللقاء إذن أيها الرجل الشجاع فقد تأخرت..

ـ الرجل يعود وقتما يشاء..

ـ يسمونها طاعة الوالدين.. آه لو علمت أمك بأمر سجائرك هذه!

ـ هل ستخبرها؟ أتحداك أن تفعل!

وتبسم (يزن) عندما ذكر ذاك الموقف الطريف، ومن ثم واصل الكتابة.. احتوته الكلمات تماماً، بدا ساهماً ويده الممسكة بقلمه تتحرك مدونةً حروف كلماته:

ـ (سلمى) تعاملني كرجلٍ بالغٍ في كثيرٍ من الأحيان، لا زلت أذكر يوم سألتني عن أسماء أطفالنا إذا ما جاؤوا ذكوراً أو إناثاً إلى دنيانا هذه!

مضت خمسة أيام على سفرها مع والدتها إلى (جنين) لزيارة خالتها (فداء).. الخالة (فداء) ذات رقة بالغة، و(سلمى) اكتسبت عنها ذات رقتها.. كلما تذكرت صنيعة الأوباش اليهود بفداء وزوجها الشهيد، ازددت تأييدا لموقف وفكر (منذر)..

لو أن (سلمى) هنا.. لكن لا! لا مزيد من الأسرار لها، لا مزيد من البوح بالأسرار لأيٍّ أحد كان.."

تأمل (يزن) ما دونه بصمت..

وقبل نهوضه للنوم في سريره سجل في ذيل الورقة:

- "لكم أفتقدتك يا (سلمى)!"

لم يبارح وجهها مخيلته طيلة رقاده في الظلام الساكن..

وعندما غط في نوم عميق رآها في منامه..

كان الجو مكفهرا من حولهما بصورة مقبضة للنفس.. وكانت فتاته جالسةً على كومة من الأعشاب اليابسة، تنوح ويداها على وجهها، فاقترب منها صائحاً:

- ما بك يا (سلمى)؟ هل آذاك أحد؟ سأقتل الذي جرؤ!

ضباب رمادي مخيف يتكاثف كمارد خرج من قمقمه وسط سحب الدخان، لكن (يزن) لم يأبه إلا لحالها.. صار على قيد أنملةٍ منها، فمدّ يده ليلامس أناملها التي غطت بها وجهها..

ـ "بحق الله أجيبيني!"

تنبه لأناملها المخضبة بالدماء، كأنها تداري نزفاً غزيراً من وجهها، فجن جنونه..

ـ "(سلمى) ما الذي أصابك؟ من صنع بوجهك ذلك؟"

أبعد الكفان الملتصقان بوجهها وهو يزمجر بسخطٍ، وحاول الكلام مجدداً، غير أن صوته لم ينفد عبر حلقه هذه المرة إلا عبر صرخة هائلة ذات صدى تردد في أرجاء المرج المقبض.. في أرجاء الضباب الرمادي.. في أرجاء حجرته!

وجد نفسه في حجرته راقدا على فراشه، وقد جلست أمامه والدته حاملة بيدها كوب ماء، وعلائم الخوف مرتسمة في ملامحها، وقد أخذت تردد بلا توقفٍ:

ـ مجرد كابوس يا بني.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم!

همس مرتعدا وبعينين دامعتين:

ـ (سلمى) يا أماه!

وضعت كوب الماء بين شفتيه، وكفها خلف رقبته كي لا يشرق..

ـ "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق.."

فرغ الصبي من الشرب، فقال مكفكفا دموعه اللاشعورية:

ـ (سلمى) يجب أن ترجع، إنها في خطر يا أماه..

ونظر ليرصد انفعال والدته إزاء ما قاله، فهاله أن وجدها صامتة بلا كلماتٍ تسعفها!

ـ "أنا لا أخرف!"

ـ "معاذ الله يا بني، من قال ذلك؟"

واستعادت صمتها المريب.. أدرك من لون عينيها بأنها كانت تبكي بحرقةٍ قبل مجيئها إليه، فتحول لونه لصفرةٍ داكنةٍ وهو لا يزال يتأملها بإمعانٍ، ثم قال:

ـ أصدقيني القول يا أماه..

ـ ماذا يا بني؟

ـ أهنالك ما تخفينه عني؟ هل أصاب (سلمى) مكروه؟

احتضنته بكل ما أوتيت من قوة، هامسة في أذنه وهي تلثمه على جبينه:

ـ ليتغمدها الله برحمته يا بني!

وفي الثانية التالية كان (يزن) يثب من على فراشه كالجندب، وركضى ركضاً وبأقصى سرعته وصوت والدته يطارده:

ـ (يزن).. ارجع يا بني!!

خرج من داره متجها صوب دار (منذر)..

ضاق صدره لدى رؤيته مصابيحهم موقدة، وشاهد رجالا يجلسون على حصيرة ميز من بينهم والد (سلمى).. لم يجرؤ على قراءة انفعالات وجهه، كان الأمر واضحا لكنه أصر على تجاهله..

وقع بصره على (منذر) أيضا، فأشار له حتى تنبه إليه الصبي أخيراً..

تقابلا بمعزل عن الرجال أسفل سنديانة عجوز قريبةٍ، هناك قال (منذر) وقد عجز عن كبح جماح دموعه الغزيرة:

ـ جاء والد (سلمى) من (جنين) قبيل ساعاتٍ، والدتها في مستوصف فقد غابت عن الوعي..

ـ ما الذي حدث؟

ـ خرجت (سلمى) لوحدها تاركة والدتها مع خالتها (فداء)، أخبرت والدتها بأنها ذاهبة للحقل..

ـ وبعد؟

ـ لم تعد، بحثوا عنها طويلا حتى وجدوها أخيراً..

(يزن)، لقد دهستها سيارة جيب عسكرية إسرائيلية حسب أقوال الشهود، العجلات مرت فوق وجهها تماماً!

وانخرط في البكاء كالنسوة حتى لامس لعابه ومخاطه الأرض، فشعر (يزن) بالأرض تميد به، بمعدته تتقلب، وبقلبه يخفق بسرعة لم يسبق لها مثيل.. وقاوم الغثيان بعسرٍ قائلا بنبرةٍ راجفةٍ كأنامله:

ـ وبعد؟



حكاية الديب

وكما تقول بعض الحكايات: "بعد عدة سنوات!"

تعد (عرابة) الأكبر من بين قرى قضاء (جنين)..

تعد كذلك الثانية في تعداد سكانها، وأكثر مواردها الحبوب ثم الزيتون فاللوزيات..

تنقسم لقسمين: الحارة الشرقية، والحارة الغربية التي يسكنها الفلاحين..

يوجد كذلك سهل (عرابة)، وهو من أكبر السهول الداخلية شبه المغلقة في مرتفعات (نابلس)، يمتد في قضاء (جنين) شمالي (عرابة)، ويبلغ طوله عشرة أكيال، ومتوسط عرضه ثلاثة أكيال..

كان قطيع الصوف المتحرك تحت إمرة الراعي، يتجه صوب الغرب، برتابة يسير في أحد الطرقات المطلة على حقول الفلاحين حيث يكدون بلا كلل..

الطقس حسن لحد بعيد، فيه برودة طيبة من لطف المولى كي ييسر أعمال الفلاحة في الأرض المباركة..

وأسفل شجرة وارفة الظلال، جلس الفتى الأشقر الوسيم كي ينال قسطاً من الراحة، فقد سار كثيراً وتعب كثيراً جداً..

أخرج من حقيبته قنينة ماء جرع منها بنهم، ثم مسح فمه بساعده.. قال وهو يمسح عرق جبينه أيضا:

ـ أكاد لا أصدق أننا بلغنا (عرابة) أخيرا..

تردد بين ثناياه صوت مبهم مغاير لصوته:

ـ "إنه توفيق الله"

ـ بالفعل، لا بأس بما قمنا به حتى الآن..

وتأمل الخضرة من حوله مغمغما باستمتاع:

ـ يا الله على جمال الحقول مترامية الأطراف! بديعة (عرابة)..

ـ "(فلسطين) كلها جميلة!"

ـ قل لي:أتعتقد أن الفتاة..

ـ "بخير؟ بل إنني واثق من ذلك.."

ـ كيف تعرف ذلك؟ أعني كيف تكون واثقاً من ذلك؟

ـ "انسيت بأني أتقن استعمال عقلي؟"

وعلى الرغم منه تبسم الفتى الأشقر ضاحكاً وهو يرد:

ـ وما علاقته بالموضوع؟

ـ "به سنتمكن من العثور عليها.. ثق بي".

ـ أثمة خطة معينة؟

ـ "ليس تماما، لكننا سنتحرى الأمر فور وصولنا.. سنسأل ونستقصي الحقائق كلها، إذ لابد لأحد أن يكون قد رأى أو سمع شيئاً.."

ـ بصراحة كلامك مطمئن لحدٍ بعيدٍ..

وهنا خاطبته الشجرة التي يجلس أسفلها بقولها محتدة:

ـ أنت.. من تحادث بحق الله؟!

تبسم الفتى الأشقر مغمضا عينيه قائلاً وقد استهواه الأمر:

ـ لا أحد!

ـ هل أنت مجنون؟!

ـ لم تقول هذا؟

ولم يلبث أن رفع وجهه لفوق، فأبصر فتى يكبره سناً يجلس على غصنٍ عملاقٍ، وقد عكف على قضم تفاحة خضراء ومراقبته بنظراتٍ تفيض ريبةً.

سأله الأشقر بعقيرةٍ مرتفعةٍ:

ـ هل تعرف (جنين) تمام المعرفة؟

ـ أعرفها وتعرفني..

ـ إذن بإمكانك مساعدتنا للوصول إليها..

ـ أنتما؟!

ـ أقصد أنا، مساعدتي أنا!

ـ تبدو مجنونا يا صاح..

ومضى الفتى الغامض يفكر ماضغا قضمة التفاحة، ثم لم يلبث أن ردّ قائلاً:

ـ بكل سرور، لكني لا أصنع ذلك لوجه الله، هنالك مقابل بالطبع..

ـ بإمكاننا إعطاؤك كل ما..

فجأة صمت الأشقر، وتوجه بنظرة محتدة لفوق صائحا:

ـ وما أدرانا بأنك لست نصابا ماكراً؟ إياك أن تظننا لقمةً سائغةً.

تلون وجه الفتى فوق الشجرة، ومن يده سقطت التفاحة التي التهم نصفها..

ـ "نصاب ماكر؟!"

ووثب من فوق الغصن، فاستغرق مدة قبل أن يستقر أرضا، فالمسافة لم تكن هينةً..

ـ "من ذا الذي ينتحر ويتهم (الديب) باللصوصية والنصب؟!"

كان متوسط الطول حسن التكوين محتد النظرات، يهز يده اليمنى طوال

الوقت كأنما يستعد لخوض مشاجرة، وأدرك الأشقر أنه ليس ندا له، فقال متلعثماً:

ـ ليس القصد يا أخ..؟

ـ قلنا (الديب) يا أصم، (الديب) الذي يعرفه جميع الرعاة..

ـ لماذا الرعاة بالذات؟

ـ لأني خلصتهم من الذئب الأشهب!

وشق قميصه بسخط، فرأى الأشقر صدرا عريضا شوهته آثار مخالب غائرةٍ..

قال (الديب) وقبضته تدق بفخر صدره المشوه:

ـ كان ذئباً بحجم نمر، شرساً مثله، لم يترك خرفان الرعاة البؤساء وشأنها فقررت نجدتهم..

ـ ما الذي صنعته؟

ـ بيدي هاتين أمسكت الذئب الأشهب لما جاء، لم يتوقع قعود (الديب) شخصياً بانتظار تشريفه!

كان خصما غير هين والحق يقال، فقد كاد أن يزهق روحي بمخالبه، لكني ظللت ممسكا به حتى قدوم الرعاة الذين تمكنوا من الإجهاز عليه.

ـ أنت صنعت ذلك وحدك؟!

ـ لا وجود لراعٍ ناكرٍ لصنيع (الديب)، وندوبي هذه تشهد لي..

ـ ألا ترى أن حكايتك مبالغ بها بعض الشيء؟ أعني بأني لست ساذجا للحد الذي تظنه!

رمق (الديب) الفتى بنظرة ملؤها التوعد قائلاً:

ـ أنت أيها الصعلوك تتهمني بالنصب مرةً، ومرة ترميني بالكذب؟!

وضرب بقبضته اليمنى راحة كفه اليسرى المفتوحة مهدداً، فتراجع الأشقر للوراء رافعاً قبضته وهو يهتف:

ـ أتريد المواجهة؟ لا مانع لدينا من المواجهة!

ـ لماذا تتكلم دائما بصيغة المثنى وكأن أحداً برفقتك؟ هل أنت مخاو لجني؟

كانت نظراته تتقاطر شكا وارتيابا محدجا الأشقر بها، فردّ الأخير بوجلٍ:

ـ أيها (الديب) إننا.. أقصد إنني أعتذر عن أية إساءةٍ غير مقصودة بدرت مني..

ـ جميل..

تغيرت نبرة الفتى الأشقر بغتة لما صاح بغلظةٍ:

ـ اسمع يا هذا، ليس لأنك (الديب) الذي نازل الذئب تأتي لإهانتنا واستفزازنا على هذا النحو الفج!

رمقه (الديب) ذاهلاً وهو يردد:

ـ لا إله إلا الله! بحقه انك لمجنون يا فتى! لابد وأن جنياً قد تلبسك!

استعاد الفتى الأشقر مرحه بذات الطريقة المثيرة للتوجس قائلاً بارتباكٍ:

ـ كنت أمازحك فحسب! ألست شجاعا؟ أنت من هزم الذئب!

ـ غصباً عنك!

ـ أنا بحاجةٍ ماسةٍ لعونك، فحدد لنا.. أقصد لي الثمن بلا لف أو دوران..

رمقه (الديب) بنظرة طويلة حانقة قبل نطقه:

ـ في (جنين) حلواني معين، يقدم ألذ صنوف الكنافة الشهية..

ـ كنافة؟

ـ أحلم بها كل ليلة كحلم العاشق بمحبوبته، فإن ظفرت بالكنافة أوصلتك لحيث يقبع العفريت الأزرق!

ـ كل ذلك لأجل..

وهنا زجره عقله قائلاً: "احمد الله يا أخي!"

ـ "لا بأس!"

تبدت التماعة شر في عيني (الديب) لما زمجر قائلاً:

ـ لكن إياك ومحاولة خداعي وإلا..

ـ أعدك بشرفي أن أطعمك الكنافة حتى تعافها نفسك، والآن عدني أنت بعدم محاولتك خداعنا!

ـ خداعكما؟! سحقاً لك وللعفريت صديقك أيها الصعلوك! (الديب) لا يعد لأن كلمته وعد، وقد قلت كلمتي!

ـ لماذا؟ كلمة من هي؟ (طارق بن زياد)؟

ـ حاذر يا صعلوك، فإن فتيلي يكاد بأن يشتعل..

أسرع الأشقر يقول قبل بدء مشاجرةٍ جديدةٍ:

ـ سنحاول الوثوق بك يا (ديب)، فلا تخذلنا أرجوك!

ـ عن أي خذلان تتحدث؟ أي حظٍ منكوبٍ ورطني معك؟ لا تخف يا فتى، لن أخذلكما.

نطق العبارة الأخيرة مستهزئا بالطبع، لكن الفتى الأشقر لم يأبه لذلك، بل قال للديب باسماً بتملق:

ـ هل ننطلق إذن؟

ـ لم أتعرف اسمك بعد يا صاح..

ـ (يزن)..

ـ ماذا عن اسم صاحبك؟

ـ صاحبي؟!

ـ لا تأبه لذلك.



حكاية أوديت وكوليت

بعثر (الديب) الرماد الذي خلفه الحطب المشتعل بالغصن الذي في يده.. كان قد أشعل ناراً جلس و(يزن) أمامها لاتقاء لسعات الزمهرير المنهكة.. شعر (يزن) بالخدر يسري في بدنه، فقال بنبرة خفيضة كما لو كان يحادث شخصا ثالثا لا يراه أحد سواه ـ كالعادة:

ـ أترغب بالنوم؟

ـ "حتماً لا، أتريدنا أن ننام وهذا الأفعوان ساهر؟ قد يسلبنا مالنا ومتاعنا ويهرب!"

ـ لكنه يبدو طيب القلب..

ـ "أنا لا أثق به.."

نظر (يزن) للديب، فوجده محملقاً في النار دون أن يطرف له رمش، وقد مدد ساقيه عن آخرهما حتى لتكاد قدماه الحافيتان بأن تلامسا السعير المتأجج..

تصاعد عواء الذئاب بغتةً.. عواء حزين منحه الصدى رهبةً، وكأن لحنا للخوف والتعاسة معاً يعزف برتابةٍ..

جفل (يزن) ناهضاً من رقاده، في حين قال (الديب) مداعبا اظفر قدمه الكبير بطرف الغصن الملتهب:

ـ أبناء عمومة الذئب الأشهب! يحاولون الانتقام لقريبهم الصريع، لكن هيهات!

ـ إنهم يحاولون إيجاد العشاء فحسب، وهنالك أمل كبير بأن نصير نحن عشاءهم!

ـ ليس و(الديب) هنا..

قال (يزن) وهو يفرك كفيه مرتعدا:

ـ لنرحل من هنا يا (ديب) أرجوك.. أكره الهلاك بأنياب ذئابٍ جائعةٍ..

تأمله (الديب) برهة قرر بعدها التفلسف قليلا عليه، فقال:

ــــ مــن يعــش في أرضٍ اغتــصبتها الــذئاب البــشرية لا يضيره الموت بأية صورةٍ كان..

ران صمت طويـل ومطبـق أرجـاء المكـان، قطعـه تـردد العواء المحزن والممزق سكون الليل مجدداً..

ـ "معك حق.."

الآن فقـط شـعر أن صـوت العـواء أشـبه بـسيمفونيةٍ تعـزف خلال الليـل الهـادئ البـارد، وعلـى لهيب النيران المتراقصة..

مـرر (الـديب) أصـابعه علـى ندويـه المحفـورة في صـدره قائلاً:

ـ الذئاب خصوم شريفة، والمعادلـة واضـحة وإن لم تكن الموازنة في القوى عادلة..

ـ وما المعادلة؟

ـ أنـت تـصارعهم لأجـل البقـاء حيـا، وهـم يـصارعونك للظفر بلقمة العيش.

ـ الظاهر أنك تعتبرها خصوما شريفة بالفعل!

ـــ أجـل، لكـن حـين أشـعل النـار في الليـالي البـاردة، وأجلـس متفكـراً في الألـسنة الدافئـة الوهاجـة، يغـدو كل ذئب يدنو مني مجرد ضيف مرحب به..

ـ ألا تخاف الذئاب النيران؟

ـ في بلادنـا لا تخـاف الـذئاب شـيئاً، إنهـا فقـط تحـاول نيل الدفء..

ـ أمر عجيب..

رفع (الديب) كفه بغتة، قائلا بنبرته المحتدة مقلداً لهجة البدو:

ـ يا هلا بالضيف!

صعق (يـزن) حين ابصر ذئبـا بلون الليل يتمدد قريبـا منهم، فهمس مرتعشاً:

ـ سيأكلنا حتى العظم!

ـــ كـفّ عـن اسـتفزاز الـضيف وابـق سـاكنا.. أهـلاً ومرحبا بالضيف!

هـدأت أطـراف (يـزن) بعـض الـشيء متـأملا الـذئب الراقد في سكونٍ، وبخوفٍ سأل رفيق دربه الواثق:

- أيفكر بالتهامنا؟

- ربما..

- لنهرب إذن..

- قمة الحماقة والجهل في أن تدع نارا مشتعلة، وتسير في دربٍ يعج بالذئاب المتوحشة..

نحن بأمان هكذا، فكف عن الذعر كالطفل الذي فقد أمه في السوق..

- لست مذعورا..

- ولا صاحبك الضئيل! يبدو شجاعا رغم هزاله! أنصحك باتخاذه قدوة.

- صاحبي؟!

ثم تنبه إلى أن (الديب) قد عاود السخرية منه، فأثار ذلك حفيظته، فبدا له أمر الذئب الراقد قريباً منهما هيناً جداً الآن فقط..

سأل (الديب) واجما وهو يرغم أطرافه على التوقف عن الارتجاف برداً وخوفاً:

- يومان ونحن نسير، قد قطعنا شوطاً صعباً، فأخبرني متى الوصول إلى (جنين)؟

ـ غدا ظهرا سنكون هناك، تصبح على خيرٍ..

ـ والذئب؟!

ـ إذا هاجمك أيقظني!

ـ أهذا وقت النوم؟ إن الظرف لا يسمح!

ـ أريد أن أكون بكامل همتي غدا، فالكنافة حبيبتي بانتظاري.

ـ كل ذلك لأجل الكنافة؟ أمرك عجيب يا أخي!

ومع مرور الوقت تعالى صوت غطيط (الديب)، فتأمله (يزن) بغيظٍ مكبوتٍ..

ثم تأمل الذئب المسالم لفترةٍ طويلةٍ، كان ينظر في عينيه البراقتين حيث التمع وهج النار فيهما..

قال فجأةً:

ـ أهلاً ومرحباً بك..

ظل الذئب راقدا كالتمثال، فتساءل (يزن) باسماً:

ـ مسافر مثلنا؟

ـ "يمكنك قول ذلك!"

ـ وإلى أين السبيل؟

ـ "أحاول الابتعاد عن طريق اليهود قدر استطاعتي حتى لا يردونني قتيلاً بأسلحتهم الفتاكة، فقد نالوا نصيبهم من أنيابي التي تلوثت بدمائهم القذرة!"

ـ أتمنى لك التوفيق أيها الذئب الشجاع..

ـ "ولك أيضا!"

والغريب في الأمر حقا أن الذئب نهض من رقاده ورحل، وكأنه اكتفى من دفء النار أو من تلك المحادثة البسيطة!

تأمله (يزن) حتى غاب عن ناظريه قبل أن يقول لنفسه بحزن:

ـ المهم أننا سنصل غداً، ومن هناك نبدأ البحث والتقصي..

ولم يكذب خبراً.. ففي اليوم التالي اتضح له مدى دقة (الديب) في حساباته للمسافات..

كانا في (جنين) ظهرا، في إحدى قرى مجموعة الشعراوية الشرقية، فسأل (الديب) (يزن) وكفه تمسح جبينه:

ـ ما اسم المرأة التي تبحث عنها مجدداً؟

ـ الخالة (فداء)..

ـ لطيف.. أتعلم كم عدد النسوة اللواتي اسمهن (فداء) هنا؟

ـ كل ما أعلمه أنها تدعى (فداء)، وتقطن إحدى قرى الشعرية الشرقية..

ـ أسألك العون يا الله! إن الشعرية الشرقية تضم حوالي عشرون قرية..

اقشعرت أطراف (يزن) وكأنما استشعرت فشل رحلته، فقال متضرعا:

ـ أرجوك ساعدنا!

ـ سنكون كمن يبحث عن إبرة داخل كومة قش..

ـ هنالك حادثة شهيرة تعرضت لها المرأة عند أحد الحواجز العسكرية قبل سنوات عدة، فقد استشهد زوجها وهي حامل و..

ـ وتم نسف الحاجز من قبل مجهول، أليس كذلك؟

صاح (يزن) شاعرا بالعرفان:

ـ أجل!

تبسم (الديب) أخيرا وهو يهرش الشعيرات النابتة في ذقنه، وقال وهو يجد بالسير يتبعه الفتى الملهوف:

ـ لا بأس، ما دمت قد سمعت بالأمر فلربما سؤال الناس يدلنا على المرأة المطلوبة، ادع ربك فقط ألا تكون قد انتقلت إلى دار أخرى أو للدار الآخرة.

ـ أعوذ بالله منك!

ـ ألم يعرفوا بعد كل تلك السنوات من الذين نسفوا ذلك الحاجز؟

ـ لا، كما لو كانوا أشباحاً..

قال (الديب) بتقريرية وهو يهز رأسه متعجبا:

ـ رجال ورب الكعبة! رجال!

لم تشغل تلك القضية بال (يزن) كثيراً، فقد شرد ذهنه في قضية أخرى مختلفة كلياً، القضية التي لأجلها قطع كل تلك المسافات..

قال بهمس مخاطبا نفسه كالمعتاد:

ـ أنا بخير.

ـ "ما الذي يشغل بالك؟"

ـ خوفي عليها يتصاعد..

تساءل (الديب) فجأة دون النظر إليه كأنه اعتاد الأمر:

ـ من تلك التي يتصاعد خوفك عليها؟

ـ ذلك ليس من شأنك..

ـ أنت تبحث عن فتاة أليس كذلك؟

ـ قلت ذلك ليس من شأنك..

توقف (الديب) عن السير، وسدد بنظرات ثاقبة إلى وجه (يزن).. افتر ثغره عن بسمة مكر لما سأله:

ـ هل تحبها؟

ـ اصمت!

والغريب أن (الديب) لم يثر، ولم ينطق بكلمة بعد ذلك.. أبقى على بسمته الماكرة تلك طيلة الطريق، حتى قابلا رجلاً يسير في دربه، فابتدأ (الديب) بالسلام فالسؤال..

كان الأمر شاقاً وعسيراً لأقصى الدرجات، وبدأت المهمة تكشف عن جانبها المتعسر.. عشرات الأشخاص

تم سؤالهم، وقد بدأ الأمر يثمر عن نتيجة، لكنها مسيرة بخطى حثيثة..

وفي النهاية، عند اصطباغ الأفق بحمرة الغروب، وقفا أخيراً أمام باب أحد المنازل..

طرق (يزن) الباب وطفق ينتظر..

ـ "حاول مجددا.."

طرق الباب مرة أخرى، وبعد برهة قصيرة جرب الثالثة..

قال (الديب) وهو يستند إلى الجدار مشقق الطلاء:

ـ قد تكون خرجت لزيارة أحدهم..

بدا (يزن) يائساً وهو يطرق الباب مرارا حتى صاح بنهاية المطاف:

ـ خالة (فداء)!

واستمر على ذلك حتى أجهد حنجرته، عندها سأله (الديب) بهدوء:

ـ ماذا الآن؟

ـ الآن نجد مكانا نبيت فيه ليلتنا، وفي الصباح نحاول مجددا..

ـ لا بأس..

وما أن هما بالرحيل حتى سمعا صوت الباب يفتح أخيراً.. التفت (يزن)

ملهوفا، فوقع بصره على امرأة تعلق في جيدها صليباً من فضة .. ممتلئة ومتقدمة بالسن قليلاً، لكنها لا زالت جميلة، وإن عانت عيناها من سواد قبيح أسفلهما، ومن احمرار فيهما من فرط البكاء!

تأملتهما بوجه جامد الملامح دون أن تنطق بكلمة، كان الدخان يتصاعد من لفافة تبغ بين أصابعها، فهمس (يزن) مرتبكاً:

ـ العفو يا سيدتي، لكننا نبحث عن الخالة (فداء) وظننا بأنها..

رفعت إصبعاً على اظفره الطويل بقايا لطلاء قرمزي، وجداه يشير صوب المنزل المجاور بالضبط..

ـ "لك جزيل الشكر!"

لكنها دخلت منزلها وأوصدت الباب كما لو كانت صماء بكماء!

دوّر (الديب) سبابته قرب صدغه بحركةٍ ذات مدلولٍ جلي، فردّ عليه (يزن) بقوله:

ـ لا، لا تبدو لي مجنونةً..

وخفّ باتجاه المنزل المجاور، فلحق به (الديب) قائلاً:

ـ ألأنها دلتنا على المنزل أخيراً؟

ـ أجل..

ثم أردف (يزن) بضيق وهو ينظر بازدراء للديب:

ـ إنها مصدومة لأمر ما، أحقاً لم تلاحظ ذلك؟!!

وتجاهله بعدها وهو يطرق الباب مرات عدة، حتى سمع صوت أنثى تنادي من وراءه:

ـ من بالباب؟

أجاب بنبرة ملهوفة:

ـ أبحث عن الخالة (فداء)، هل تقطن هنا؟

فتح الباب لتظهر على عتبته شابة حسناء ترتدي السواد، رمقته بنظرات تعجبٍ وريبةٍ..

ـ "الخالة (فداء)؟"

ردّت عليه:

ـ بل (بثينة) شقيقتها..

تصاعد في تلك اللحظة صوت ضعيف من الداخل يقول:

ـ من بالباب يا (بثينة)؟

ـ العلم عند الله، ماذا تريد؟ إن شقيقتي مريضة..

ـ أريد مقابلتها لأمرٍ هامٍ إذا أذنت لي..

عاودت تأمله بارتياب قبل أن توسع من فرجة الباب كي تسمح له بالمرور..

ـ "سأنتظر هنا.."

وابتعد (الديب) عن الباب قدر الإمكان باحثاً عن مكان يصلح للجلوس، أما (يزن) فقد انتظر في الردهة حتى عادت (بثينة)، فاقتادته لحجرةٍ شبه معتمةٍ، ذات أثاثٍ بالغ القدم لكنه نظيف..

رأى (فداء) الرقيقة متمددة في سريرها، ولون وجهها فاقد لنضرة الأصحاء..

ـ "أهلاً يا بني.."

ـ "أهلاً يا خالة، قد لا تتذكرينني، أنا (يزن) ابن (فوزية) التي كانت تزوركم سابقاً من (كفر راعي) برفقة أم (سلمى) رحمها الله.."

ـ "(يزن)! بالطبع أتذكرك! كيف حالك وحال والدتك يا عزيزي؟"

تبدى الابتهاج في نبرته وهو يرد بحرارة:

ـ نحمد الله، كيف صحتك؟

ـ الحمد لله على كل حال يا بني.. صرت وسيما بسم الله ما شاء الله! البنات سيتهافتن عليك!

ـ كيف (إبراهيم) الصغير؟ لابد وأنه قد صار رجلاً الآن..

ـ إنه لا يهدأ عادة، يسبب لي متاعباً لا حصر لها، لكنه الآن نائم.. كيف والدتك؟

ـ بخير..

ـ ووالدك؟ أتساعده في الحقل؟

أجابها كاذبا:

ـ أجل..

ــ أنــت رجــل الآن يــا بــني، وينبغــي عليــك تحمــل المسؤولية من الآن فصاعداً.. والآن أخبرني لماذا لم تأت والدتك لزيارتي؟

ـ أرجو بأن تصغي إلي قليلا يا خالة..

صمتت المرأة، ثم لم تلبث أن قالت باسمةً:

ـ أعلم بأني أثرثر كثيرا..

ــ لا! لـيس القـصد يـا خالـة، لكنني جئتـك لأمـر هـو غاية بالأهميةِ..

ـ أقلقتني يا بني، ما الأمر؟

سـكت الفتـى وكأنـه لا يعـرف مـن أيـن يبـدأ، ثـم قـال أخيراً بوجلٍ:

ـ الأمر متعلق بفتاة..

راقبـت (فـداء) تقـاطيع الفتـى المتـوردة وهـي تبتـسم، وبرفق سألته:

ـ هل تعرفها؟

ـ لا أدري!

ـ وما اسمها؟

ـ لا أعلم.

ـ لا تدري ولا تعلم؟ أهو لغز يا بني؟

ـ لن يكون كذلك إن صدقت ما سأطلعك عليه..

ـ إذن قل ما عندك..

ـ أتذكرين موت (سلمى)؟

وجمت المرأة لوهلة قبل أن تجيب بعبوس:

ـ رحمها الله، كيف لا أذكر موت ابنة شقيقتي الشهيدة؟

ـ هل تصدقين لو قلت لك بأني قد رأيت هلاكها في منامي؟

حدقت به وكأنها تراه للمرة الأولى، وقالت متعجبة ومبتسمة بآن واحد:

ـ كيف؟!

ـ أعلم أن ما قلته ضرباً من ضروب الجنون..

ـ جنون؟ لا.. أعتقد أنه غريب فحسب!

ـ رأيت كذلك استشهاد صديقي (منذر)، يعلم الله أنني حاولت إنقاذه بشتى السبل لكن..

ـ رحمه الله، كان بطلاً..

ـ كان صديقي الوحيد، ولا يزال حيا بداخلي!

ـ يا بني ناشدتك بالله أن تكف عن العيش بداخل العذاب، هلاك الاثنين كان قدراً مقدراً من الله عزّوجل..

ـ وأنا لا أشكو لك آلامي أو أحاول حملك على تصديق ما كشفته لك، جئتك فقط لسؤالك عن الفتاة..

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، ما الذي تريد معرفته يا بني؟

ـ في الواقع كان المنام مبهماً هذه المرة، لكنني قدرت أن الفتاة مفقودة، ثمة أمرٍ مخيف قد أصابها..

ـ وهل أعرفها؟

ـ لهذا جئتك، قالت عنك أمورا طيبة، إذن لابد وأنك تعرفينها..

ـ لا أفهم كيف يمكن أن يساعدك ذلك.. حسنا إذن، ما هي أوصافها؟

ـ جميلة جداً!

تبسمت المرأة من جديد قائلة بلطف:

ـ يا بني جميع بنات حواء على قدر متباين من الجمال! ما بالك؟!!

ـ شعرها أسود طويل، عيونها خضر.. لا أعلم كيف أصف فتاةً!

ـ رباه! لقد عرفت للتو من تقصد يا بني.. يا للذاكرة الواهنة!

لم يصدق الفتى ما سمع، فأصغى صامتا متحمسا..

ـ "أتحدث عن جارتنا المسكينة (كوليت).. قبل حوالي أسبوع خرجت ابنتها (أوديت) إلى دكان عم (وضاح) الحلواني لابتياع الحلو، ومن يومها لم تعد.."

سألها باهتمام:

ـ (كوليت)؟ أتقصدين السيدة المسيحية القاطنة بجواركم؟

ـ هي بعينها، قد أودى اختفاء ابنتها بعقلها.. المسكينة امرأة طيبة، وابنتها كما الماء العذب..

ودمعت مقلتاها متأملة أناملها الآخذة بالارتعاش..

ـ "إنني ابتهل للعلي القدير كل ليلة ليستجيب لصلواتي وتضرعاتي كي تعود الفتاة إلى أحضان أمها سالمة من كل أذى، فلا عذاب موازٍ لعذاب فؤاد أم ملتاعة على قطعة من روحها لا تعلم عن مصيرها شيئا.."

قال (يزن) بصوت حزين:

ـ كفكفي دموعك يا خالة..

قالت له بحنو وهي تمسح الدمع بأناملها:

ـ الليلة تنام عندنا يا بني..

ـ معذرة يا خالتي، أخشى أنني لن أقدر..

ـ أنت ضيف قطع مسافةً غير هينة، وأنا بمقام أمك..

ـ أنا في عجلة من أمري، شكراً لك يا خالتي..

سألته بعدما تأملته مليا:

ـ ستذهب لزيارة (كوليت) أليس كذلك؟

ـ يبدو أنني سأفعل..

ـ هل بإمكاني سؤالك يا (يزن)؟

ـ بكل تأكيد..

ـ عندما سألتك عما إذا كنت تحب الفتاة، رددت بأنك لا تعلم..

قال (يزن) قبل خروجه من حجرتها:

ـ كانت هي أول من تكلم معي في المنام!

وعندما خرج من الدار وجد رفيقه (الديب) غافياً أسفل شجرة، فتبسم، كان ذلك يناسبه..

كما لمح تلك السيدة المدعوة (كوليت) تراقبه من وراء نافذتها، كما لو كانت بانتظاره!

نظر نحوها بإمعان، فتجاهلته مبتعدة عن النافذة.. اتجه إلى دارها، فوجد بابها مفتوحاً، فاعتبر ذلك دعوة للولوج..

كانت جالسة على كرسي وقد أولت ظهرها للباب، بين أنامل يدها اليسرى لفافة تبغٍ جديدة وقد تصاعد دخانها ببطءٍ..

ـ "سيدة (كوليت)، جئتك في أمر يخصك.. أمر متعلق بابنتك!"

رمقته بنظرات استخرجت العرق من جلده، وببرودة أخرجت الدخان ببطءٍ مع كلماتها:

ـ هل تحلم بها كثيراً؟

تسمر في مكانه قبل اقترابه منها متسائلا بتوترٍ:

ـ ماذا قلت؟!

سألته بصوتٍ مبحوحٍ من فرط التدخين ـ وكانت تلك المرة الأولى التي يرى بها امرأةً تدخن، وقد بدا ذلك منفرا بالنسبة له:

ـ هل تحلم بطفلتي الغالية كثيرا؟ لماذا لا ترد؟ أتظنني امرأةً مجنونةً؟

ردّ بسرعة مرتبكة:

ـ لا! حتماً لا..

بدت غير مهتمة برده وهي تقول ببرودة:

ـ أنت شاهدت طفلتي الغالية في حلمك.. أليس كذلك؟

ـ كيف عرفت ذلك؟!

تنمر وجهها قائلة بنبرة مخيفة:

ـ كيف تراها أيها الفتى؟ مجرد أنثى جميلة؟ فريسة سهلة؟

شعر بوجهه يحترق، فأسرع يقول مرتبكا للغاية:

ـ بالتأكيد لا يا سيدتي، أقصد.. أريدها فقط أن تعود إليك!

ـ أهذا هو هدفك حقا؟

وأطفأت لفافة التبغ في منفضةٍ رخاميةٍ امتلأت بالأعقاب مسلطة عيونها المحمرة عليه، ثم قالت بتهكمٍ مريرٍ:

ـ حلمت بطفلتي الغالية؟ حلمت بها ولم تتمكن من نجدتها؟

ـ آسف لذلك أشد الأسف..

ـ أنا كذلك حلمت بها ولم أتمكن من فعل شيء لها..

همس (يزن) برهبة:

ـ ولكن ما معنى ذلك كله؟

قالت وهي تنهض:

ـ أتحب السكاكر؟

ـ قلت ما معنى ذلك كله؟

تناولت علبة سكاكر من على المنضدة، وقدمتها إليه وهي تغمز له بعينها قائلة:

ـ تناول ذات اللون الأحمر، فمذاقها بنكهة الفريز!

ضرب العلبة بسخط وقد فقد القدرة على التحكم بأعصابه، فأسقط محتواها أرضا قبل صراخه بأعلى صوته:

ـ كفي عن جنونك هذا! أعلم أن حزنك على فقدان ابنتك شديد، لكنه لا يوازي ما شعرت به من حزن يوم فقدت أعز صديقين لدي!

ـ لا حزن يماثل حزن فقدان الأم لولدها يا بني.. تذكر هذا!

وقبعت على الأرض للملمة ما تبعثر من سكاكر، فوجد (يزن) نفسه يساعدها بكل أسى وشفقةٍ.. شعر كذلك بالندم لفظاظته معها، فهمس بأسف:

ـ سامحيني على وقاحتي..

عاودته الرهبة حينما لاحظ نظراتها إليه.. نظرات حنو وغموض في آنٍ واحدٍ..

قالت له مداعبة أصابعه بأطراف أناملها:

ـ صف لي مملكة أحلامك!

ـ مملكة أحلامي؟

ـ لكل امرئ مملكة أحلام إذا ما كان واسع الخيال..

وأنت واسع الخيال حتما!

ردّ شاعرا بأنها قد تلقفته في عالمها العجيب:

ـ أجل..

ـ إذن صف لي مملكتك أيها الملك، فلا بد وأنها خلابة!

بدا الفتى في حيرة من أمره، لم يدر كيف يبدأ..

فجأة شردت عيناه، وبنبرة صوت من ارتحل لأفق جديد وعجيب غمغم:

ـ هنالك عشب أخضر ندي في سفح واد مترامي الأطراف، إذا نظرت له من فوق شعرت أنني أشاهد

ذقنا غير حليقة لرجل مهيب الطلعة عيناه حنونتان، يشبه.. يشبه جدي رحمه الله!

في منتصف الوادي وسط الأعشاب الخضراء توجد شجرة برتقال

وليدة، جلبها لي جدي وعاونني على زراعتها في المرج القريب من دارنا، وكنت في كل ليلة أقوم بسقايتها، لأني أردت لثمارها أن تكون فضية كالقمر، لا ذهبية كالشمس!

همست المرأة باستحسان:

ـ أرجوك أكمل..

ـ ثم تظهر (أوديت)، وجهها المليح يتلألأ في الحلم..

نجلس على العشب كي نتحدث، أخبرتها باسمي ورفضت أن تخبرني باسمها..

ـ لم تظنها لم تفعل؟

ـ لا أعلم، ربما لم ترد أن أعلم أنها مسيحية!

ـ أوه كم أنت صريح!

احمر وجهه قليلاً قبل أن يهمس مطرقاً بوجهه:

ـ ماذا عن مملكتك أنت؟

ـ أوه كم هي جميلة! ولكن ليس بمقدار جمال مملكتك حتماً.. إن الأحلام منفذ جميل لنا لولوج عوالم سحرية، يمكننا فيها التخفف من أعباء وهموم الحياة أحيانا..

ـ وهل أخبرتك (أوديت) عني أم هي أحلامك التي أطلعتك بكل ذلك؟

نظرت له بإمعان، فقرأ في عينيها أمرا هو كالحيرة.. كالضياع..

قالت له وهي تشد على راحة يده بأصابع قاسية:

ـ في أحلامي أراك تناديها بألمٍ ورجاءٍ.. في أحلامي أرى ذات الظلمة التي سلبت مني طفلتي تسلبك أنت أيضا!

تراجع للوراء قليلا، لكنها بقيت متشبثة بيده وهي تهتف مرتعبةً:

ـ أخبرني بحق الرب عن سبب رؤيتي لك في أحلامي!

لماذا تظهر وهم يعذبونك بتلك الطريقة المروعة؟

لكنك لست أنت! تبدو أقوى وشعرك أسود اللون.. عيناك ترتسم برودة عجيبة فيهما، ووجهك مزدان بثلاث ندبٍ مائلةٍ وغارقةٍ بالدم!

صاح بصوت كان مكبوتاً وإثر ضغط الانفعالات المتتالية انفجر:

ـ أنت مجنونة يا امرأة!

ـ ما الذي ينتظرك في رحلتك المجهولة إذا ما تابعتها؟ أهو الموت البطيء؟

ترى هل عذبوا طفلتي بتلك الطريقة المروعة؟ أفضلها ميتةً على سماع صرخات العذاب الأليمة!

صرخ في وجهها وقد راعه كلامها:

ـ لعل الأقدار أرسلتني لنجدة (أوديت)، ألم تفكري في ذلك؟

غطت وجهها بأصابعها صارخةً برعبٍ:

ـ لماذا يبزغون كحيواناتٍ نهمة للدم البشري؟ لماذا اختطفوا حبيبتي (أوديت)؟ لماذا؟!

ـ من هم؟! من هم؟!

هبطت أصابعها على شفتيها وارتجفت..

- "أصحاب الوجوه الشائهة!"



حكاية العم وضاح

لافتة معلقة بداخل المحل، دوّن عليها بيت الشعر الشهير:

"سقى الله أكناف الكنافة بالقطر

وجاد عليها سكر دائم الدر"

فلو أن (الديب) دخل الجنة، ما كانت لسعادته أن تكون موازية لدخوله دكان عم (وضاح) الحلواني!

صاح ما ان دلف بصخب:

ـ كيف العتيد؟

ـ "هذا صوت (الديب)، سفاح الذئاب والكنافة معاً!"

وبرز لهما العم (وضاح)، فهالت بدانته المفرطة (يزن)..

صاح وهو يصافحهما بقبضةٍ غير لينةٍ:

ـ مرحبا بالديب وبفرد العصابة الذي معه، أطلت الغيبة هذه المرة يا فتى..

ـ وأنت صرت كالدببة، خبرني ما إذا كنت تصنع الحلو لالتهامه!

ـ مقبولة! فأنت أفضل زبونٍ عندي..

ثم سأل (الديب) ببسمة تحمل المكر في طياتها:

ـ ماذا تطلب؟ هريسة أم "جاتوه"؟

ـ الكنافة يا رجل! وأريدها من كلا الصنفين، الناعم والخشن.. ثم الكثير من القطر، والكثير من الفستق الحلبي، والكثير الكثير من السرعة!

ـ دعني أقص عليك طرفة..

ـ اعفني من طرائفك وعجّل بالكنافة..

قهقه الرجل قائلاً:

ـ اصبر يا أخي، دعنا نعرف طلبات الضيف أولاً.. ما قولك بطبق من الكنافة الشهية يا بني؟

أجاب (يزن) بنبرةٍ فاترةٍ:

ـ شكراً يا عماه، لا أحب الكنافة..

ـ وكيف ذلك؟

صاح (الديب) وهو يلف قبضته في الهواء:

ـ ناشدتك بالله يا عم (وضاح) بأن تجعله يعشقها..

ـ سأجعله يبيت في المحل بعد أول طبقٍ..

قال (يزن) واجما:

ـ شكراً يا عم، أفضل قطعة صغيرةً من الهريسة..

لم يجادل الرجل أكثر..

ـ "كما تشاء يا بني، لن ألح عليك أكثر.."

وخفّ لإحضار الطلبات، فقال (الديب):

ـ هون عليك..

ـ يسهل عليك قول ذلك..

ـ لا تدع الهم يقتلك..

ـ كما لو كنت أملك الخيار!

ويبقى على صمته ونفوره حتى سأله (الديب) وهو يقرب مقعده منه:

ـ ألا تظن أن ما قدمته لي حتى الآن من براهين غير كاف كي أقنع بأن فتاتك مخطوفة؟ أعتقد أن (كوليت) هذه قد جنت لفقدانها ابنتها..

ـ لقد خطفوها وأراهنك على ما تريد..

ـ لسنا في حقل رهان هاهنا..

ـ إن اختفاء فتاة على ذلك النحو الغامض لا يمكن أن يكون مصادفةً..

ـ ربما، لكن التخمين وحده لا يجدي نفعا، لابد من طرف خيطٍ..

حضر في تلك اللحظة العم (وضاح) حاملا صينية تراصت عليها أطباق الحلوى..

ـ "الكنافة يا قرة العين!"

فما ان وضعت الحلوى برتقالية اللون أمام (الديب) حتى كشر عن أسنانه المصفرة، فخلط اللعاب بالقطر، وما هي إلا ثوان معدودة حتى أتى على طبقيه كلية!

ـ "هنيئاً مريئاً.."

وقال (يزن) وهو يقضم من حبة الهريسة بتمهل:

ـ سلمت يداك يا عماه..

ـ عم (وضاح) هو أفضل حلواني في الوجود!

ثم صاح (الديب) وهو يلعق شفته السفلى بلسانه اللزج من أثر الدبق:

ـ المزيد..

ـ أمرك يا شره..

وسارع بجلب طبقين آخرين، في حين بدا على (يزن) شرود ذهن عميق سأل بعده العم (وضاح) باهتمام:

ـ منذ متى وأنت تعمل هنا يا عماه؟

أجابه الرجل وهو يصب القطر على الكنافة في سخاء:

ـ أنا يا بني أعمل في الحلو سنيناً بعدد شعر الرأس، لم يحدث خلالها أن حاول أحدهم دخول المنافسة ضدي..

قال (الديب) مؤمنا بفم ممتلئ وخدين متكورين:

ـ لا منافس لعم (وضاح)، فهو أفضل حلواني في الوجود!

وضع (يزن) يده على خده سائلاً الرجل:

ـ وهل تذكر زبائنك دوماً؟

ـ ذاكرتي من حديد يا بني، لا يمكنني نسيان أحدٍ.. صحيح أنني كبرت وشخت، لكنني لم أخرف بعد ولله الحمد..

ـ أتذكر فتاة مسيحية تدعى (أوديت)؟

توقف (الديب) عن المضغ المتواصل بلا هوادة، لينصت إلى ذلك الحديث ونظراته تفيض دهشةً..

وتبدى حزن عميق على وجه الرجل الطيب، إذ أجاب مهموماً:

ـ أعرفها يا بني، فتاة حلوة عذبة الوجه واللسان، الله أعلم بديارها اليوم..

ـ أتذكر يوم اشترت الحلوى من عندك آخر مرة؟

ـ بكل تأكيدٍ، اشترت قطعة "جاتوه" في يوم اختفائها المشئوم..

هرش (يزن) رأسه كأنما يستحث عقله على النطق بأفكار نيرة، قبل سؤاله بغير اقتناع:

ـ ألا تتذكر أمرا مريبا وقع في دكانك يوم اختفائها؟

ـ لم كل هذه الأسئلة يا بني؟ أأنت قريبها؟

قال (الديب) وهو يتجشأ:

ـ كفّ عن الثرثرة وجاوبه يا رجل..

وعاود (يزن) السؤال بإلحاح:

ـ هل تذكر أمراً غريباً يوم اختفاء (أوديت) يا عماه؟ أي أمر مهما بدا لك هيناً..

ـ ليس على حد علمي، ولكن ما علاقة ذلك باختفاء قريبتك؟

ـ ليست قريبتي ولا علاقة هناك، مجرد آمال واهية..

وظهرت خيبة الأمل على وجهه، فوضع عم (وضاح) يده الثقيلة على كتف الفتى مواسيا..

ـ "إذن فنحن لا نملك لها غير الدعاء يا بني.."

ـ "وأعود صفر اليدين؟"

ومال لونه لاصفرار قشر الليمون لما أدرك فشل مسعاه، لكن لم يلبث أن استعاد وجهه لونه الطبيعي حين لمح بوادر التفكير على وجه الرجل، فهتف وقد اختلج الأمل في صدره من جديد:

ـ هل تذكرت شيئا؟

ـ لا يا بني، إن هذا لا شيء..

ـ أستحلفك بالله أن تقوله يا عماه، فأنت لن تخسر شيئا..

ـ لا أدري يا بني، لكنني تذكرت أمرا دعاني للريبة الآن فقط!

ـ ما هو بالله عليك؟

ـ إنه أمر هين، لكنني سأقوله على أي حال.. يوم اشترت (أوديت) الحلوى من عندي، كان هناك رجلاً أراه للمرة الأولى، طلب قطعة "جاتوه" وجلس لالتهامها، ولأني ثرثار بطبعي فقد عرفت منه بأنه تاجر خردوات من (بيسان)..

أذكر أن الفتاة دخلت ونحن نتحدث، وما إن خرجت حتى خرج الرجل خلفها تاركاً نصف قطعته دون أن يتمها، ثم غربت الشمس وسمعنا نبأ اختفاء الفتاة.. لقد شاركت في البحث عنها لكن دونما جدوى..

ـ ولم تشك بالرجل كونه الخاطف؟!

ـ رأيته يتجاوز الفتاة بسيارته مبتعداً، لا أعلم، قد يكون اكتفى بما أكله من "الجاتوه"، ربما لم يعجبه مذاقها!"

تساءل (الديب) مهتما:

ـ أقال إنه من (بيسان)؟ أم قدم منها؟ إن (بيسان) مستوطنة يهودية الآن..

ـ صرت في شك من أمري! لكن الرجل كان يتحدث العربية بطلاقة..

قال (يزن) متأملاً في الموضوع المثيرة مستجداته:

ـ هذا أمر مهم، مهم وخطير!

قال (الديب) دون اهتمام:

ـ لا أظن، فالرجل قد لا يكون له علاقة بشيء..

ـ ولربما يكون قد تجاوز الفتاة كي يخطفها فيما بعد بعيداً عن الأنظار!

ويزغت داخل رأسه أفكار مجهولة الهوية، سأل بعدها الرجل:

ـ هل بإمكانك أن تصف ذلك التاجر لنا؟

ـ أذكر بأنه كان نحيلاً، يملك صلعةً خفيفةً عليها كدمة داكنة غريبة لربما كانت وحمةً ولد بها!

ضرب (يزن) سقف الطاولة بصخب قائلاً:

ـ صف لنا مركبته..

ـ سيارة نصف نقلٍ زرقاء اللون، علام عقدت العزم يا بني؟

ـ على السياحة في (بيسان)!

تبسم (الديب) ضاحكاً كما لو كان قد سمع نكتةً طريفةً، وصاح:

ـ إلى مستوطنة اليهود؟! أتمزح يا صاح؟

ـ أفهم من كلامك أنك لا تفكر بالقدوم..

ـ أجننت؟ العمر واحد والرب واحد..

قال (يزن) بلهجة ترغيبٍ:

ـ سأشبعك من الكنافة حتى الامتلاء..

ـ قد أفكر بالأمر!



حكاية نصر ونصار

تقع منطقة (بيت قاد) في ظاهر (جنين) الشرقي..

يقول (الديب) لرفيقه غير المهتم:

ـ الزيتون هنا من أطيبه، والشجر المثمر كثير، فالقرى تعتمد على مياه الأمطار كثيرة الهطول..

قال (يزن) للتخفف من عبء الأفكار المؤرقة:

ـ يبدو لي أنك قد طفت (فلسطين) بأسرها يا ديب..

ـ طفت قضاء (جنين) بأسره..

ـ وهل زرت قضاء (بيسان) من قبل؟

ـ بالطبع لا، فاليهود ينتشرون هناك كالبراغيث في فروة الكلب، لكنني أرغب برؤية أقصى مدى ستبلغه قبل توقفك عنده!

قال له (يزن) كأنه يتحدى:

ـ سأبلغه حتى النهاية، فقد أقسمت ألا أرجع من دون (أوديت)..

ـ مثل أفلام السينما!

كانا يسيران في منطقةٍ مقفرةٍ بعض الشيء إلا من بضعة منازل شبه مهدمة، فقال (الديب) متلفتا حوله بتوترٍ:

ـ أرجو أن تكون شجاعتك بوزن كلماتك يا صاح..

ـ ماذا تعني؟

ـ هنالك مشكلة أود اطلاعك عليها، وهي أن قدمي كلما خطت هذه المنطقة عانيت من مشاكلٍ لا حصر لها!

ـ من اليهود؟

ضحك (الديب) ملء الفم قائلاً:

ـ لا بحق الله! أحيانا اليهود نعمة مقارنةً مع جماعة (فريسة)!

ـ جماعة من؟!

فوجئ ببزوغ مجموعة من الفتية وكأن الأرض قد انشقت عنهم، وبهما أحاطوا كما السوار بالمعصم!

ـ "الويل! من هؤلاء؟"

جمد (الديب) في مكانه مجيباً:

ـ جماعة (فريسة)! لابد وأنهم كانوا يراقبوننا منذ ولجنا منطقة نفوذهم..

ظهرت على أفواههم ابتسامات غير مطمئنة، فبدوا كقطاع الطرق الذين

كانوا يعترضون دروب القوافل في الماضي!

ـ "هذا (الديب) قد عاد لنا.."

ـ "يبدو وأن (عرابة) قد ضاقت به.."

ـ "ربما الدنيا التي ضاقت به.."

ـ "صبرا حتى يراه (فريسة).."

ـ "سيحوله لفريسة!"

وقهقهوا ضاحكين، فابتسم (الديب) باستهانة وإن سال عرق جبينه!

سأله (يزن) وقد توجس خيفة من الأمر:

ـ من هؤلاء يا ديب؟ ومن يكون (فريسة) هذا؟ زعيم عصابة من قطاع الطرق أم ماذا؟

ـ (فريسة) هو زعيم جماعتنا التي لها باع طويل في تدبير الذخيرة للفدائيين أو إيصالها لهم.. كان ذلك قبل غضبه علي!

ـ وماذا فعلت له كي يغضب عليك؟

ـ إنه يتوعدني بسلخ جلدي عن لحمي!

ـ رباه! ماذا فعلت له؟

احتقن وجه (الديب) مجيبا:

ـ لم يقع ما يغضب الله سوى انني.. حادثت شقيقته قليلاً!

ـ اضرب!

ـ والأدهى أن أحدهم لمحنا فأبلغه!

ـ ضعنا ولله الحمد!

ومن وراء أحد البيوت المتصدعة برز لهما (فريسة) يرافقه فتى ضخم الجثة، كان أصلع الرأس مشدود الأوتار، وأطلق صرخة بربرية ملوحا بزجاجة شرابٍ حرامٍ:

ـ أكاد لا أصدق! (الديب) بشحمه ولحمه؟

قال (الديب) بتماسك يحسد عليه:

ـ كيف الحال يا (فريسة)؟

ـ اخرس!

نطقها بمقت صريح، ونظر في عيون رفاقه قبل نقل بصره إلى عيني خصمه، حيث صاح في وجهه:

ـ أنت لا تنطق في حضرتي!

وعلى صخرة قريبة منه هشم زجاجته، وهزّ أطرافها الحادة كالسكاكين في وجوه الجميع وكأنه يشهدهم على ما سيرتكبه من جرم..

ـ "اليوم يوم هذا الزجاج المتكسر، لأنه سيتلوث بدم الخائن!

أتعلم ما الذي صنعته بشقيقتي بفضلك يا ديب؟

لقد شوهت وجهها بزجاجةٍ مماثلةٍ! لذا هي لا تجرؤ على الخروج كي لا يبصرها أحد فيسقط مغشياً عليه!"

قال (الديب) متمنياً الفرصة لإفراغ الغضب الذي ركبه في تلك اللحظة:

ـ يا لك من أرعن وغد!

ـ ربما لأنك هالك في كل الأحوال، فأردت أن تبدو كالشجعان وأنت تشتمني.. لا بأس!

ـ وكيف انتويت قتلي؟ بمعاونة عبيدك هؤلاء؟

ـ لست بحاجتهم كي أغرس هذه في نحرك..

ودنا ملوحاً بالزجاجة الخطرة، فسأله (الديب) وهو يتأهب لمواجهته:

ـ وإذا هزمتك؟

ـ محال!

ـ وإذا هزمتك؟

ـ عندها أدعهم يقتلونك!

ـ وبئس المواجهة! لكنني سأواجهك..

تشكلت دائرة حول الخصمين، وتصاعد التهليل والتصفيق من جانبٍ والشتم المقذع من جانب آخر..

استرد (يزن) طريقته المجنونة في محادثة نفسه بغتة:

ـ كيف سنخرج من هذه الورطة؟ بالأحرى كيف سنخرجه هو؟

تصاعد الصوت الداخلي:

ـ "أتسألني أنا؟"

تقدم (فريسة) من (الديب) ببطء وتحفز..

فجأة باغته بالزجاجة قاصداً عينه اليسرى، فألقى (الديب) برأسه للوراء.. رمى (فريسة) زجاجته جانباً وهو يقول:

ـ لست بحاجتها كي أنهيك، ستدفع ثمن خيانتك..

ثم انقض واللعاب يغمر شدقيه، فبدا كمجنون مسعور، مما جعل قلب (يزن) يخفق فزعا..

امتلأ الجو بالغبار الخانق وشتائم وهتافات الفتية المتحمسة والثائرة، وتوالت اللكمات الهمجية من كل

طرف على وجه وبدن الطرف الآخر بغية أذيته أشد أذية، أو قتله لو كان بإمكان اليد العارية المجردة..

وعقب تصادم أخير، وجد (فريسة) نفسه ملقى على الأرض والدم ينزف بسخاء من أنفه، فمسحه بقبضته صارخا بلا توقف:

ـ اذبحوه!!

نظر الفتية إلى (الديب) الذي وقف لاهثا والدم يغمر شفتيه، وخاطبه أحدهم بقوله متعنتا:

ـ معذرة يا ديب، ليست المسألة كامنةً بالقوة..

ـ أحقا يا (نصر)؟ أين تكمن إذن؟ أهذا هو قائدكم؟

ـ في سبل العيش يا ديب، نحن نريد أن نعيش..

ـ ويا لها من معيشة رغداء!

زمجر (فريسة) مكشراً بتوحشٍ، وحاول الفتى الضخم الذي يرافقه معاونته على النهوض، لكنه دفعه بعيدا بخشونةٍ وهو ينهض..

سار فلحق به العدد الأكبر من الفتية.. وتوقف مشيرا للديب وهو يصرخ بتكرار قبل رحيله:

ـ اذبحوه!!

ورحل مع الفتيان الذين ساروا معه، فقال (الديب) متجاهلاً تقدم من بقى منهم:

ـ وإن ناشدتكم باسم الصداقة؟

ـ يا لك من.. أنت حية من تحت تبن!

ـ بل صديقكم القديم يا (نصر)، إنكم لم تجلبوا السكاكين حتى!

ودهش (يزن) لما ردّ (نصر) وهو يربت على كتف (الديب):

ـ ما كان عليك فعل ذلك بالرجل يا ديب..

خفض (الديب) رأسه قائلاً وكفه تمسح دماءه:

ـ أنا مجرد أرعن مفعم بالهيجان والجموح!

ـ كلنا كذلك، لكننا نملك السيطرة على أنفسنا!

ثم ما ذنب (صفية) كي تورطها؟

بقلب واجف تساءل (الديب) مترددا:

ـ و(صفية)؟ أحقا..؟

ـ أصدقت حقاً أنه صنع ذلك بوجهها؟ يا لك من أحمق! ألا تدرك مدى تعلقه بشقيقته؟ نالت بضع صفعاتٍ فحسب..

أطلق (الديب) تنهيدة خلاصٍ حارةً، فتبسم (نصر) قائلاً بمكرٍ:

ـ يا عكروت! الأمر أكبر من الجموح والهيجان، أنت تحبها!

ـ الحب كلمة هينة..

ـ ومن هذا بحق الله؟!

قالها (نصر) مشيراً إلى (يزن)، فأجابه (الديب):

ـ مجرد تائه أحببت تقديم العون له..

ـ لماذا؟ أهو طفل؟

وأطلق ضحكةً ساخرةً، فخرج صوت (يزن) من بين أسنانه:

ـ لا تغتر كثيراً برجولتك المزعومة!

ـ بم هرفت يا صعلوك؟!

وتقدم بحدة كي يفتك به، لكن (الديب) صدّه بذراعه قائلا:

ـ دعك منه الآن..

ـ سأشرّحه!

صاح (يزن) كي يزيد من تأجج النيران:

ـ هلم واختبر قوتك مع من يوازيك قوة يا جبان!

ـ أسمعت ما قاله هذا الحيوان الصغير؟!

سدد (الديب) إصبعه في وجه (يزن) منذرا، وقال محذرا إياه:

ـ إن تماديت أكثر تركته ليشبعك ضربا، ولا أحب على قلبه من ذلك!

أطبق (يزن) فمه غاضبا، وفي تلك اللحظة اقترب الفتى الضخم الذي كان يرافق (فريسة) منذ البداية، فعانق (الديب) ضاحكا ويده تربت على كتفه بقوة..

ـ "مرحى يا ديب! عدت رغم غضبة (فريسة) وتوعده بالنيل منك!"

تبسم (الديب) قائلاً:

ـ ألم أخبركما بأنه لن يقدر؟

ـ لكن ذلك لا يمنع تماديك، وعلى فكرة، (صفية) تزوجت عقبا للجميع!

اربد وجه (الديب) وهو ينظر لنصر.. ارتسم الاستنكار بكل صوره القاسية على وجهه وهو يتساءل مبهوتا:

ـ كيف؟

قال (نصر) ويده تشير بتهكم إلى (يزن):

ـ تقدم لها شاب جامعي أشقر كصاحبك هذا، فوافق (فريسة) على الفور..

نقل (الديب) بصره بينهما قائلا بمرارة:

ـ قتلني (فريسة)!

ـ أخته وهو حر فيها يا أخي، لا تصدع رأسك..

شعر (يزن) بشفقة هائلة اتجاه (الديب)، في حين وضع الضخم يده على كتفه قائلا له:

ـ هلم يا ديب، ما حدث قد حدث..

تبسم (الديب) متهكما، وكاد أن يرحل معه لولا أن استوقفته صيحة (يزن):

ـ وماذا عن (بيسان)؟ ألن ترافقني إلى هناك كما اتفقنا؟

انقلبت بسمة التهكم إلى شفقة، أما (نصر) فقد هتف كمن يخاطب معتوهاً:

ـ إلى (بيسان)؟ أهو في كامل وعيه؟

وباستهانة لا توصف مسح بكفه على رأس (يزن) بأسلوب استفزازي لم يجد الفتى في نفسه طاقة لتحمله..

ـ "عد لأمك يا حبيب أمك، فلابد وأنها تبحث عنك الآن!"

دفع (يزن) يد (نصر) باحتداد، فتبسم الأخير باستهزاء قائلاً:

ـ الطفل يملك الجرأة!

وفي الثانية التالية وجد (يزن) نفسه يقذف أرضاً وفمه مغمور بالدماء، فنهض ثائرا ليقتص لكرامته من (نصر)..

ـ "إليك عني!"

ولم يتزحزح الفتى المتيبس قيد أنملة إثر انقضاضة (يزن) عليه، وتجمع من بقى من الفتية ليشهدوا القتال بحماسة لا حدود لها، فهللوا لنصر الذي قام برد الهجمة مضاعفة إلى صدر (يزن)، فأسقطه وهو يئن ممسكا بموضع آلامه..

ـ "يا عيبه! يا عيبه! ابن أمه! ابن أمه!"

وحاول (نصر) استكمال هجومه الضاري، لكن صراخ (الديب) أوقفه:

ـ كفى..

ـ رقّ قلبك أخيرا؟ كنت أحسبه ميتا..

ـ إن ماتت القلوب صارت البهائم أرفع شأنا منا!

ـ وأصرت تفلسف الأمور كذلك يا (سقراط) زمانك؟!

تأمل (الديب) وجه (يزن) المغطى بالدم، ثم اقترب منه، ومدّ يده ليعاونه على النهوض..

ـ "لسنا بحاجة لعونك!"

ونهض وحده ممسكا بصدره وهو يبصق الدم جانباً، كانت نظراته تمزق صدر (الديب)..

قال فجأة وكأنه استعاد هدوءه دفعة واحدة رغم ما أصابه:

ـ أنت كنت مخلصا لأبعد الحدود يا ديب، وفي أحلك الظروف كنت رفيقا طيبا، فشكرا لك على كل حالٍ!

وحمل متاعه القليل استعدادا للرحيل، مبتسما دونما ضغينةٍ ظاهرةٍ في ملامح وجهه!

ـ "انتظر.."

تسمر (يزن) في مكانه، وقال (نصر) مستغرباً:

ـ حنيت لرفقته؟ دعه يرحل لحال سبيله..

تجاهل (الديب) كلام (نصر) وهو يخاطب (يزن) متبرماً:

ـ أوافق..

ـ توافق؟ توافق على ماذا؟

ـ على إنقاذ الفتاة مقابل المكافأة التي ستمنحنا إياها والدتها!

هتف (نصر) مذهولاً:

ـ مهلاً، عن أي فتاة ومكافأة تتحدثان؟

ـ لو أن لك علاقة بالأمر لكنت أطلعتك!

ـ لكني صديقك عليك اللعنة! ما الحكاية بالضبط؟

تجاهله معاودا النظر إلى (يزن) قائلاً بوجومٍ:

ـ اتفقنا؟

ـ أجل.. اتفقنا!

وحملت نظرات الفتى الأشقر فيضا من الامتنان والاعتراف بالجميل، في حين قال الفتى الضخم:

ـ سأذهب مع (الديب)..

ـ (فريسة) بحاجة لك يا (نصار)..

ـ حيث يذهب (الديب) أذهب معه، لن أطيق فراقه بعد اليوم!

ـ لن يأذن لك الزعيم بالرحيل يا أحمق..

ـ ارحل إلى جهنم معه!

لم يصدق (نصر) سمعه وبصره، فقال له (الديب) بمكر:

- هل أنت قادم يا صديقي المخلص؟ إنها مكافأة مجزية!

- حيث يذهب شقيقي الأرعن أذهب أنا..

وبسخرية مرة عقب:

- تلك كانت وصية المرحومة والدتنا!



حكاية فاتك

الأفق الممتد حالك كالسواد في ثوب المرأة الفلسطينية المميز..

ترى المرتفعات الصخرية من بعيدٍ وكأنها سواد تم لصقه على عتمة الليل، فلا تدري أيهما اشد عتمةٍ من الآخر..

ويهمس (يزن) للديب بوجل:

ـ أصرنا في (بيسان)؟

ـ نحن في (تل الشوك) يا فتى فاخفض صوتك..

وهمس وصوته يجنح للتوتر البالغ:

ـ لا نريد إيقاظ روح (النمر)!

كاد (يزن) يثب صائحاً، لكن الصمت المطبق من جميع الأطراف جعله يلجم.. زاد فقط من خفض صوته حين سأل:

- سمعت بالنمر؟

- ومن لم يسمع به؟

قال (نصر) بنبرة صوته العادية دون أن يتلفت:

- إن روحه تهيم ليلا، لا تفرق بين عدو وحبيب!

ويغيظ خاطب (الديب) بقوله:

- وكنت أظنك الداهية الذي لا يشق له غبار! تقودنا وراء مخاطرة غير محسوبة النتائج، وأية مخاطرة؟ إنقاذ فتاة من براثن خاطفيها من اليهود الأوباش، الذين لسنا متأكدين من أنهم الذين قاموا باختطافها! وإن كانوا الذين خطفوها فالمصيبة أعظم!

كيف السبيل لإخراجها من قلب مستعمرةٍ يهوديةٍ؟ كيف لنا إيجادها أصلا؟

غمغم (الديب) في جفاء:

ـ حين تستعيد والدة الفتاة ابنتها ستغمرنا بالمال قبل العرفان!

عـاود (نـصر) هـز رأسـه بغـير اقتنـاع، وكالعـادة ظـلّ (نصار) على صمته، فسأله (يزن) وكأنه يتودد إليه:

ـ لماذا لا تتكلم؟ لماذا أنت صامت هكذا طيلة الوقت؟

ـ تركت الكلام لشقيقي!

عقب (نصر) على كلامه ساخرا:

ـ فإذا تكلم تورط وورطني معه! والدليل ما نحن فيه..

تجاهل (يزن) كلام (نصر)، ودفع بتساؤله التالي إلى (الديب):

ـ كيف خاطرت بنفسك وبي لتدخل عرين شخصٍ راغبٍ بالانتقام منك؟

أجاب (الديب) بمرارةٍ:

ـ الحب يصنع ما هو أكبر!

قال (نصر) باقتضابٍ:

ــ الحـب لا يـصنع سـوى المتاعـب الـتي نـندم عليهـا لاحقاً..

كان البرد القارص قد بلغ مداه، ورغم ذلك قرروا المخاطرة معه على إشعال نار قد تجلب لهم ما لا يحمد عقباه.. لكن ذلك لم يمنع أسنان (يزن) من الاصطكاك، في حين بدا الفتية الثلاثة وكأنهم جزء من تقلبات الطبيعة، يتأقلمون تبعا لأهوائها، لذا كره (يزن) الظهور أمامهم بمظهر الضعيف كثير الشكوى والتذمر..

سأل (الديب):

ـ يبدو وأنكم قد زرتم (تل الشوك) من قبل..

ـ كانت لنا فيه صولات وجولات، أغلب عملياتنا الناجحة قمنا بها في هذه الأرجاء..

ـ هل حدث وأن قابل أحدكم (النمر) أو رآه في ليلةٍ ما؟

داهمهم صمت مطبق، فأدرك بأن الجواب هو..

ـ "نعم! كان ذلك في إحدى الليالي المقمرة.. أبصرناه من بعيد يتنقل بين الصخور كالعفاريت رغم ضخامة جسمه.."

شرد فكر (يزن) في خواطر وتخيلات تحمل عبق (النمر)، ثم تساءل:

ـ وكيف أدركتم أنه هو؟

ـ لأنه هو.. هو (النمر)!

ثم قال (الديب) بتقريرية:

ـ حين ترى (النمر) تدرك بأنه (النمر)!

تذكر (يزن) حكايات الجدة الرهيبة عن (النمر)، كان (منذر) ـ رحمه الله ـ يعشق حكاياته..

سمع (الديب) يتساءل مخاطبا (نصر) و(نصار):

ـ ماذا جلبتما من زاد؟

جاوب (نصار) وهو يفتش في جعبةٍ من قماشٍ:

ـ خبز ومعلبات وماء..

ـ لنسترح قليلاً أسفل تلك الصخرة..

فكان عليهم السمع والطاعة، خصوصاً فيما أمر للتو، فقد كانوا منهوكي القوى..

جلسوا أسفل الصخرة المنشودة، ولم يفكروا بالنار طبعاً كي لا تجذب انتباه جنود الاحتلال أو الأشباح..

قال (نصر) وهو عاكف على فتح علبة فاصوليا بحجر:

ـ لا أحبذ المبيت عنا..

ولما تنبه إلى عدم سماعه ردا على ما قاله نظر للديب، فوجده يحدق بالعلبة.. نظر بدوره مستغرباً للعلبة التي بيده، فسأله (الديب) كي يبدد له حيرته واستغرابه:

ـ ماذا تصنع؟

ـ ماذا؟ أحاول فتح هذه العلبة المشئومة..

ـ بحجر يا فالح؟ أين فتاحة العلب؟

ـ ومن أين لي بواحدة؟

ـ يا إلهي!

ضحك (نصار) للموقف الذي راق له، فاستبد الغيظ بنصر، فرمى بالعلبة بعيداً وهب واقفاً يهتف:

ـ أتحاول إهانتي يا ديب؟

هتف (الديب) به وقد ابتدأ يفقد أعصابه:

ـ أنت من يهين نفسه بأفعالٍ تنسب للبلهاء!

قال (يزن) لهما بقلق:

ـ أليس من الأفضل أن تكون أصواتنا منخفضة؟ لأن..

صرخ (نصر) فيه:

ـ اصمت أنت!

شعر (يزن) بحرارةٍ في أذنيه، فابتسم (نصار) قائلاً له:

ـ الأحرى ألا تتدخل بينهما، فهما هكذا في لحظات الضيق الشديد، بعد ذلك يصيران كأخوين..

شعر (يزن) بالميل لنصار الهادئ بطبعه، على عكس شقيقه الذي يثور كثيرا، حتى وإن كان يتولى التفكير بدلا عن شقيقه..

سأله (يزن) بأسلوب ودود:

ـ هل تحتمل عصبيتهما دائماً بهذا الشكل؟ يا لشجاعتك!

شعر بانزعاج كبير حين لم يرد الفتى الضخم عليه، وكاد أن يغير رأيه فيه لولا أن سمعه ينطق أخيراً:

ـ سيارة عسكرية تقترب!

وهنا تحول الفتية لعناصر في المطافئ، لتحركاتهم المستنفرة وسرعة لملمتهم أغراضهم..

ـ "ورائي، دونما حرف.."

وبالخوف شعر (يزن) وهو يتبعهم، حيث أن توتر الفتية الذين لطالما وثقوا بأنفسهم جعله على يقين من أن الأمور ليست تحت سيطرتهم بعد الآن..

صعدوا الصخور بخفة، واستدار (يزن) لينظر، فوجد السيارة تبطئ من سرعتها..

ـ "بسرعة، لابد وأنهم قد لمحونا.."

هكذا بات القلب الخفاق بسرعة العامل المشترك بينهم جميعا..

وتوقفت السيارة، فهمس (الديب):

ـ اثبتوا..

فاستحالوا أصناماً، كل بوضعية، وفضل (يزن) وضعية لا تمكنه من رؤية المشكلة المقبلة..

ترجل من السيارة ثلاث جنود يشهرون السلاح بحذر، فانهمر عرق (الديب) والشقيقان غزيراً لمعرفتهم بالطامة التي ستقع لو أن العصابة أبصرتهم.. سمعوا كلاماً مبهما بعبريتهم، من ثم اشتعلت مصابيحهم، وشرعت الأضواء تتقدم على مهل..

كان الموقف صعباً ودقيقاً للغاية، إذ يكفي أن يسلط أحد الجنود كشافه نحو موقع تواريهم شبه الظاهر كي يضيعوا!

اقتربوا أكثر، فتمكن (يزن) من سماع (الديب) يتلو الشهادتين!

شده الفتى مفكرا.. أهو الموت إذن؟

لم يتوقع أن يتهدده الموت، فقد ظن حياته ستكون طويلة رتيبة.. إن احتمال الموت برصاصة كان أمراً بعيداً كل البعد عن مخيلته، رغم معرفته بقسوة الرصاصة اليهودية، ومشاهدته لبعض من ضحاياها في الشوارع، جثث متخمة لكثرة ما نالها من رصاص، لكنه لم يتوقع ملاقاة بندقية العدو على هذا النحو القريب الخطر والخيالي أيضاً!

إذن فهو الموت! الموت الذي نال من (سلمى) و(منذر) في الماضي.. أخيراً أتى لأجله، إنه يسمع صوت خطواته تقترب، ليدعو الله إذن ألا تكون قبضته أليمة أثناء القبض..

ـ "أنا شام! (أنت هناك)"

إلا أن الضوء الذي كاد يسلط عليهم تحول عنهم فجأةً باتجاهٍ آخر، وتصاعد كذلك دوي إطلاق نار مروع في ذلك الاتجاه!

همس (نصر) وهو يلهث في خلاصٍ متأملاً بسعادة وجوه رفاقه غير الواضحة بسبب الظلام:

ـ أقسم أن أعبد الله بإخلاصٍ منذ هذه الليلة!

ـ "من المهم أن تنجو لتعبده إذن!"

كان مصدر الصوت آتيا من فوقهم، فما ان رفع الأربعة رؤوسهم بدهشة حتى وجدوا من يمد لهم قبضته الفتية قائلاً بخشونةٍ:

ـ هيا يا حمقى قبل أن يعودوا!

ألقوا بخواطرهم المبلبلة جانباً وهم يتقدمون بالترتيب لالتقاط قبضته التي بدت بالنسبة لهم

طوقا للنجاة، فعاون الجميع على الصعود ابتداءً بيزن وانتهاء بنصار، وحينما نظروا إلى منقذهم كي يشكروه..

ـ "انبطحوا.."

صنعوا كما أمر وبسرعة مذهلة لأن الجنود عادوا، وبدا ظاهرا أن خفي حنين كانا بحوزتهم..

قال أحدهم بنبرة ملول واضعا بندقيته الآلية على كتفه:

ـ أولاي زئيف (ربما ذئب)

وافقه زميلاه بهز الرأس، وتوجه الثلاثة لسيارتهم قبل ركوبها ومعاودة الانطلاق بها..

قال (الديب) ببسمةٍ ممتنةٍ:

ـ عمر جديد انكتب لنا يا إخوان، والفضل يعود لله ثم لك!

ومدّ يده ليصافح منقذهم، لكن الفتى استقبل ذلك بجفاءٍ رافض..

كان نحيلاً بعض الشيء، وقد استغرب (يزن) ذلك بشدة، إذ كيف لمثله رفع شخص بضخامة (نصار)؟

لكـن العـروق في سـاعديه بـدت وكأنهـا أنابيـب تمـده بالقوة، فقد كانت متنافرة متشابكة لأبعد الحدود!

لم يكـن وسـيماً، لكـن عيونـه بـدت مخيفـةً وآسـرةً بـآنٍ واحدٍ! ذقنه وشعره لم يحلقا منذ زمن.. ثمة ما يمنحه مهابـة رغـم مقاريتـه لهـم في العمـر إن لم يكـن أكـبر، طولـه المعتـدل متناسـب مـع تكوينـه الجـسماني.. باختصار هو شخص لا يمكن الاستهانة به أبدا..

قال مخاطبا (الديب) مولدة عيناه السوداوان نظرات مخيفةً:

ـ هل أنتم حمير؟! ما الذي أتى بكم إلى هذه البقعة من الأرض؟

لكن (الديب) كان مستعدا لغض الطرف عن تلك الإهانة من فرط ارتياحه بنجاتهم، فأجاب واضعاً يده على كتف الفتى:

ـ إنها حكاية طويلة، ستعذرنا لو سمعتها..

أزاح الفتـى المتـصلب يـد (الـديب) عـن كتفـه قـائلاً بجفاء:

ـ لا أرغب بسماعها، لقد عرّض والدي نفسه للموت في سبيل إنقاذكم!

ـ إذن فوالدك الذي جذب انتباه الجنود فصرفهم عن ملاحظتنا!

وذهلوا لتلك الشجاعة، فقال (نصر) بوجل:

ـ علينا التأكد من سلامته..

ـ هو بخير، إنني واثق من ذلك، والآن ارحلوا ولا تكرروا الحماقات..

احتد صوت (نصر) هذه المرة وهو يخاطب الفتى بقوله:

ـ اللعنة! أتحسبنا كنا نلعب الغميضة يا هذا؟ أتنقذنا لتتملك أرواحنا؟

فجأة صاح (الديب) جزعاً:

ـ ساعدوا الفتى!

لم يتنبه أحدهم لسقوط (يزن) أرضا غير (الديب) الذي عاود صياحه الملهوف:

ـ ما الذي أصابك يا (يزن)؟

فتح الفتى جفنيه بصعوبة متأملا وجوهاً مشوشة محيطة به، وتمتم بوهن:

- شعرت بلسعة ألم شديدة تفترس قدمي، لم أكترث لأنني.. كنت خائفا من أن يكشفونا!

أسرع الفتى الغامض بتفحص قدم (يزن) بعناية..

- "عقرب أسود!"

اكفهرت الوجوه حتى غدت كالحة، وكان سؤال (الديب) الأوحد بينهم:

- هل بالإمكان إنقاذه؟

فأجابه الفتى وساعداه موثوقان أمام صدره:

- لست متأكداً تماماً.. ما رأيك يا أبي؟

اتجهت أبصارهم إلى من يخاطبه الفتى، فهالهم ما رأوه فيه من ضخامة هائلة وغزارة في الشعر كأنه إنسان الكهف الأول! وتقدم ذلك العملاق ببطء.. كان رهيباً ومخيفاً، بدا بعينيه ذات الحواجب السود الكثة كصوف الخروف أشبه بالعفريت، وفي حزامه الجلدي تأرجح خنجر معلق هائل الحجم..

قال العفريت مسدداً بنظراته الجهنمية صوب (يزن):

ـ احمل الفتى يا (فاتك)، وسنرى ما بوسعنا عمله..

تعلق بصر (يزن) بوجه الرجل المخيف طيلة الوقت..

وقبل سقوطه في دوامة الغيبوبة التي أحدثها السم، كان قد أدرك بأنه هو.. هو (النمر)



الفصل الثاني

حكايا الليل

لكن انظروا، هاهو ذا شيء أحمر كالدم..

يشق طريقه متلويا وسط جمهرة الأشباح..

يطل من الجانب المنعزل للمشهد..

يتلوى، يتلوى بشره قاتل..

فتصير الأشباح له طعاماً..

وتشهق الملائكة بالبكاء وهي ترى..

الدود يلعق الدم البشري..

(إدجار آلان بو)

حكاية تاجر بيسان

أمسك العجوز بقبضته المتشققة حفنة من تراب الأرض، أعطاها لصبيٍّ أشقر تتجلى ملامح النجابة المبكرة في تقاسيم وجهه الوسيمة، فقام الصبي بحمل التراب بحذر وحرص كما لو كان يحمل تبراً أو حتى حلوى..

اتجه ناحية شجيرة برتقالٍ صغيرةٍ مزروعة، فوضع حفنة التراب التي بين يديه أسفلها، وبرفق غريب مسح بيديه على أفرعها وبراعمها الوليدة..

كان قد زرعها بعون من العجوز.. لكم ازدهرت سعادته بمراقبتها وهي تنمو كما يرقب الأب نمو طفله، كأنه سحرٌ، لكن العجوز أخبره بأن ثمة سحر هاهنا، سحر خلاب، سحر هذه الأرض المباركة المعطاءة..

نهض الصبي من جلسته بجوار الشجرة استعداداً للرحيل مع العجوز، لكنه ما أن استدار حتى تسمر

كالوتد في مكانه، وقد تملكه إحساس مباغت بالخوف..

كيف رحل العجوز من دونه؟ كيف اختفى بتلك السرعة الرهيبة؟!

ومن ذلك الشخص المخيف المتسربل بالسواد كراهبٍ منسي؟

دنا منه بحذر وخوف، فوجده يقوم بسقاية مجموعةٍ من الورود سوداء اللون، وكان عددها خمس ورداتٍ!

وهنا توقف ذلك الشخص الرهيب عما يفعله، وبتؤدة قال:

ـ وردة لكل واحد!

أدرك لماذا بدا له ذلك الشخص مألوفاً رغم مظهره المرعب.. لقد كان حوذي عربة الموت! تماماً كما تخيله في كتاباته!

لماذا تكاثفت الغيوم الرمادية لتطغى على أشعة الشمس بتلك الطريقة الكابوسية؟ وما سبب آثار الدماء التي تنتشر في الأرجاء؟!

وفي الأفق المكفهر المقبض، لاحت أشباح لمجموعةٍ من الجنود يشهرون أسلحتهم ككتيبة للإعدام، اقتربوا ببطء مثير للتوجس، بل بسرعةٍ عجيبةٍ رغم سيرهم الذي بدا بطيئا! فما ان هم بالركض حتى فوجئ بالدم يغرق قدمه!

هل أطلقوا النار عليه؟ كيف ذلك وهو لم يسمع صوت طلقةٍ واحدةٍ؟

تذكر أنه ملقى على الأرض بلا حيلة! لم يصرخ ألما لأنه لم يشعر به، لم يشعر بساقه كلها كما لو كانت مبتورة منذ زمن!

ـ "أتا شام، أوي كتان!" (أنت هناك، يا صغير)

صوت صارم تردد، فانكفأ وجه الصبي للأسفل غير مصدق.. أهو الموت؟ أهو الموت أخيرا؟ ربما ينجح في إيهام الدب بأنه ميت، أو الأسد الذي يترفع عن التهام الجيفة..

لكنهم كانوا ضباعا تقتل وهي تضحك.. دائماً يضعون طلقةً أو اثنتين في الجسد الملقى بلا حول أو قوة للتأكد من هلاكه، حتى وإن كان جسد طفل رضيع..

زحف على بطنه ولم يحاول النظر للخلف، زحف مطولا وهو يلهث للمجهود الذي يبذله..

وفجأة، قبضت يد قاسية طويلة الأصابع على قدمه المصابة، فأطلق صرخة هائلة لشعوره بالألم أخيرا ـ وقد كان رهيبا لأقصى حد ـ والتفت لينظر إلى صاحب القبضة الهمجية، فرأى ظلالا تطغى على ملامحه التي بدت منفرة كلما لاح جزء منها، وكأنها سحنة لشيطان!

ميز كذلك في رأس الرجل صلعةً خفيفةً، ظهرت عليها بقعة داكنة بدت كالكدمة، قبل أن تتشكل على صورة غراب آخذ بالنعيق المجنون!

ـ "دام! (دم)"

قالها الرجل المريع كاشفا عن أنياب هائلة الحجم كمصاصي الدماء في الخرافات، قبل أن يسيل لعابه فوق رجله الدامية!

عندئذ صرخ.. فتلاشت تلك الرؤى الشبيهة بالهلاوس، وقد امتزجت بالخلفيات الضبابية أحياناً والمظلمة أحياناً أخرى..

وأخيراً، كأن الروح التي فارقت الجسد قد عاودت تقمصه، فتح (يزن) جفنيه ليجد نفسه في مكانٍ لم يتمكن من فهم تضاريسه غير المتناسقة بداية، إذ لا يعقل أن يكون حجرةً داخل منزل ما.. ومن ثم استوعب الأمر.. كان في كهفٍ معدٍ لسكنى البشر..

نظر إلى ما يزعج بصره فوجده مصباحا قديما يعمل بالزيت..

رأى كذلك وجها يتأمله باسماً ببشاشةٍ، بدا له مألوفاً لحدٍ بعيدٍ..

ـ "حمداً لله على سلامتك!"

وصوته مألوف أيضا، بل معروف حتما، إنه لضرب من ضروب الجنون ألا يتذكر صوت ووجه صديقه الراحل (منذر)!

قال وقد شعر بالحديث بحد ذاته يؤلمه:

ـ ما الذي حدث؟

ـ "الحمد والشكر لله، فقد كدت تلحق بي يا صاحبي!"

ـ ألا تريدني أن أكون إلى جوارك؟

ـ "عندما يحين أوان ذلك فقط!"

ـ وأين نحن؟

ـ "في كهف الأسطورة.. (النمر)!"

ـ (النمر)؟!

وقفز من الفراش كالقرد مستعيداً ذاكرته دفعةً واحدةً..

ـ "(النمر) أنقذك من سم العقرب.. إنه ملاك!"

ـ كنت أحسبه شبحاً!

ـ "بل هو حقيقة ظاهرة، وكذلك ابنه (فاتك)!"

تذكر حكاية ابن (النمر) على الفور، وكيف قدر الجميع له الهلاك، ثم نجاته بطريقة أغرب من الخيال..

قال وهو يشعر بدوار خفيف:

ـ كنت أظنها مجرد حكاية من تخاريف الجدة، مجرد حكايةٍ خياليةٍ..

ـ "في (فلسطين) تغدو مثل تلك الحكايات التي تروي البطولات وقائعاً يا صاحبي!"

طال صمت (يزن)، فسأله (منذر):

ـ "ما بالك؟"

ـ رأيت جدي في كابوس مخيف حقا، كما لو كان بمثابة تحذيرٍ لي من خطرٍ محدق..

ـ "عاودتك الهلاوس من جديد؟"

تلفت (يزن) حوله، فلم يجد أثرا لصديقه القديم.. أبصر (الديب) واقفاً أمامه قائلاً بحبور:

ـ معنى ذلك أنك بخير! حمدا لله على سلامتك، إنك لضعيف البنية كي يتمكن سم عقربٍ ضئيلٍ منك إلى هذا الحد!

ـ أين الجميع؟

ـ في الخارج يشوون لحم الأرانب البرية.. جائع؟

ـ بكل تأكيد..

ـ نخرج إليهم إذن، وللتعرف على منقذك.. (النمر) الأسطوري!

ـ أكاد لا أصدق بأنه بشر مثلنا من لحم ودم..

ـ اعتقدت ذلك فيما مضى أيضا، دعني أعاونك..

ـ لا، اسبقني أنت للخارج وسآتي على الفور..

ـ كما تشاء..

خرج تاركا إياه يستجمع أشلاء قوته المبعثرة.. ونهض (يزن) متثاقلا وهو يتحسس صدغه وجبهته.. لمح قارورة فخارية بجواره، فصبّ بعضا من مائها البارد في حلقه الجاف..

لمح كذلك صندوقا في إحدى زوايا الكهف، وقد فرشت سجادة قديمة فوق غطائه، وفوق السجادة وضعت صورة بالأبيض والأسود داخل إطار خشبي، لشابة جميلة تبتسم ابتسامة عذبة وترتدي قلادةً دائريةً ذات نقش بديع للفظ الجلالة..

بقي (يزن) على تأمله لتلك الصورة كالمنوم، ثم خرج من الكهف، فوجد الطقس شديد البرودة، ورفاقه جالسين مع الفتى الذي لا يستهان به حول النار وهو عاكف على إعداد الشواء، واشتم (يزن) رائحة اللحم، فدار لها رأسه من شدة جوعه..

دنا من مجلسهم، فاستقبلوه بترحاب حامدين الله على سلامته..

قال وهو يقعد بين (الديب) و(نصر):

ـ الجوع كافر!

ناوله الفتى المخيف ما نضج من شواء قائلاً:

ـ هنيئاً مريئاً، عيار الشبعان بأربعين لقمة..

نهش الفتى اللحم بأسنانه متلهفا، ورمش بعينيه قائلاً:

ـ ما أطيبه!

ـ اللحم المشوي على نار الحطب طيب المذاق دائماً..

ـ سلمت يداك..

ـ كل كما تشاء، الخير كثير..

حملت لهجته كثيرا من الود هذه المرة، فشجع ذلك (يزن) على الاسترسال:

ـ ألا تخافوا أن يلمح أحد الجنود النار الموقدة؟

ـ لا تخف، فمن الصعب بلوغ هذه البقعة من الجبل، كما أنه من المتعسر رؤية هذه النار، فهي بقعة مستترة..

وضرب (الديب) كتف (يزن) بقوة آلمته صائحاً بجذل:

ـ عودة حميدة من عالم الأموات يا (سيف)!

ـ (سيف)؟

ـ (سيف بن ذي يزن)!

وقهقه ضاحكاً، فشاركه (نصر) و(نصار) قهقهته!

ـ "أضحكونا معكم!"

ومن قلب العتمة برز (النمر).. كان العملاق يحمل عدداً هائلاً من الحطب لا يقوى على حمله أعتى الرجال.. فألقى به أرضاً، ثم جلس ماداً كفه الضخمة اتجاه (يزن)..

ـ "محسوبك (النمر).."

تفاجأ (يزن) بادئ الأمر، ثم مدّ يده التي توارت بأكملها داخل قبضة العملاق..

ـ "لا تخف، لست بآكل لابن آدم!"

قال (فاتك) بشيء من وجوم مقلباً الشواء على النار:

ـ أنت آكل ابن صهيون!

ـ معك حق! أشعر برغبة في التهام لحومهم النتنة ومن ثم بصقها!

شعر (يزن) بقشعريرة وبمعدته تتقلب، في حين قال (الديب) بإعجاب واضح كما لو كان يسمع أشعاراً:

ـ أنت بطل يا رجل، هل تعلم هذا؟

ـ لا شأن لي بالبطولة والأبطال..

وأخرج من جيبه غليونا طويل الفوهة كأنه "أرجيلة"، فدسّ في قمعه التبغ مغمغماً:

ـ يجب قتل الكلاب المسعورة كي لا تؤذي الناس، إن قتل الكلاب مجرد عمل خيّر لكف الأذى، فلا يمكن وصفه بالبطولة!

سارع (نصر) بالقول:

ـ تواضعك في غير محله يا رجل، برأيي أنك شجاع..

ـ ليست شجاعة يا بني وإنما نمط حياة، وقد اعتدنا أنا و(فاتك) هذا النمط القاسي..

وأشعل الغليون، ثم طفق يدخنه في صمت احترموه.. كان يسحب النفس بعمق، ثم يطلق سراحه حينما يشرع بالكلام، فكأنه يلتهم الدخان التهاما..

قال لهم وبصره مسلط على النار:

ـ قلت لنفسي يوما وأنا أشاهدهم يجوبون أراضينا بسياراتهم وأسلحتهم ويعثون فيها فسادا: إن العربي الذي يعلن عدم كرهه لهم مجرد أفاق! الشعب الذي غضب الله عليه ولعنه هو شعب تجب محاربته، فلا سلام مع ذئاب!

قال (الديب) ملقيا بغصن متيبس لألسنة اللهب:

ـ الذئاب خصوم شريفة!

قال (يزن) باسما ويده تشير إلى الندوب التي على صدر (الديب):

ـ أخبرهم حكايتك مع الذئب الأشهب!

انتفخت أوداج (الديب) قبل أن يقول بتفاخر:

ـ كان ذئبا بحجم نمر، شرساً مثله، لم يترك..

قاطعه (فاتك) موجهاً حديثه ليزن:

ـ أحقا قطعت كل تلك المسافة من أجل إنقاذ قريبتك من خاطفيها اليهود؟

كظم (الديب) غيظه بصعوبة لتلك المقاطعة المباغتة، في حين قال (يزن) مرتبكا:

ـ هي ليست قريبتي، لكنها أعز صديقة على قلبي..

وضع (النمر) مزيدا من الحطب في النار التي خفت تأججها قائلاً:

ـ هذا ما أسميه شجاعة بحق..

عاود (فاتك) السؤال مبديا اهتمامه بالموضوع:

ـ قمت بتلك الرحلة الشاقة لإنقاذ صديقتك؟

قال (الديب) بفتور:

ـ ونحن الذين ساعدناه..

قال (يزن) مؤمناً بحرارة:

ـ يشهد الله أنه لولا مساعدة (الديب) لي ما كنت بلغت هذا الحد مطلقا..

قال (الديب) مزهوا وهو يشير لرفيقيه:

ـ والآن ينضم (نصر) و(نصار) للمعمعة، ولولاهما..

لكن الشقيقين عكفا على التهام الأرانب المشوية بنهم دون الإصغاء لكلمة مما يقال! فقط رفع (نصر) رأسه

عما يقوم به وهو يهتف ملوحاً بعظمة من الأرنب الذي افترسه:

ـ مزيدا من الشواء الطيب!

ـ يا فرحتي!

نظر (يزن) لفاتك، فوجده لا يزال يتأمله باهتمام.. فكر بأن ذلك سبب لطفه معه بكل تأكيد، عندما سمع بهدف رحلته واكتشف بذلك معدن الرجال بداخله..

تساءل (النمر) الذي بدا مهتما للأمر بدوره:

ـ خبرني (الديب) أن رحلة بحثكم تنتهي في (بيسان)..

ـ أجل، إن لم تبدأ هناك من جديد..

ـ وكيف نويتم ولوجها؟

ـ كما ولجنا (عرابة) و(جنين) و(بيت قاد) من قبل..

ـ هنالك حاجز عسكري، ومن ثم تجدون أنفسكم تتمشون وسط عصابات من اليهود، فكيف ستجدون الفتاة؟

قال (نصر) وقد تنبه أخيرا محدجا (الديب) بنظرات حادة:

ـ هذا ما أحاول شرحه لهم منذ زمن!

قال (يزن) بعزم:

ـ لا فارق لدي، سأذهب في كل الأحوال ولو كان في ذلك هلاكي..

نقر (النمر) طرف الغليون على جبهته العريضة قائلا:

ـ آه! هنالك فرق بين الشجاعة والحماقة، والعقل يجب أن يظل الكفة الراجحة من الميزان دائما..

ـ يجب أن ننجدها يا عماه، إن بدني يقشعر بأكمله كلما تخيلت أنها في قبضتهم..

أطرق (النمر) برأسه مستغرقا بالتفكير، ثم سدد نظراته اتجاه ولده، الذي قال ما ان لاحظ ذلك:

ـ الأمر يستحق المحاولة..

ـ لكنها مجازفة في منتهى الخطورة..

سألهما (الديب):

ـ عما تتكلمان؟

ـ ثمة طريق لعبور حاجز الجيش في مستوطنة (بيسان)..

ـ ممتاز، ولكن ماذا بعد ذلك؟

قال (يزن) ـ وان بدا غير مقتنع بما يقوله:

ـ سندبر رؤوسنا!

تبسم (النمر) قائلاً:

ـ كيف؟ بطلب عون اليهود للعثور عليها؟ لا فائدة ترجى من دخولكم دون خطة مضمونة النتائج..

قال (نصر) متبرما:

ـ وبالطبع نحن لا نملك خطة، ولا أتوقع أن نملك واحدة..

وقال (الديب) مخاطباً (النمر):

ـ أنت لم تقدنا إلى طريق لولوج المستوطنة كي تتخلى عنا فيما بعد، أليس كذلك؟ أشر علينا يا (نمر)!

شعر (يزن) ببارقة أمل تنبعث بين جوانحه.. كيف لا و(النمر) معهم؟

ـ "خذوا (فاتك) معكم!"

وصمت (النمر)، فحذوا حذوه كأن على رؤوسهم الطير، فلما طال صمته تساءل (الديب) مستغرباً:

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك ماذا؟

ـ وبعد أن يرافقنا (فاتك)، ما هي الخطة مضمونة النتائج؟

ـ آه! حين تصلون دعوه يتصرف، أنا واثق من أنه سيفعل ما هو مناسب!

ونهض متمطياً متثائباً وهو يقول لهم في إنهاك:

ـ كان يوماً حافلاً، تصبحون على خير..

ودخل الكهف تاركا إياهم يضربون أخماساً في أسداس لمعرفة مقصده.. نظروا إلى (فاتك) حائرين في أمره، استغربوا صمته كما لو أن والده قد أمره بشراء الخبز من عند الفران، لا بمرافقتهم لولوج الخطر في قلب مستوطنة يهودية!

قال لهم وبصره معلق بألسنة اللهب مما أكسب عينيه بريقا جميلاً ـ وان بدا مخيفاً أحياناً أخرى:

ـ تلك السيارة الزرقاء نصف نقل التي حدثتني عنها يا ديب.. قد رأيتها تلج المستوطنة قبل ثلاثة أيام!

ـ سيارة التاجر؟ أحقاً ما تقول؟

قال (يزن) غير مصدق لما يسمعه:

ـ إنه توفيق من الله أن التقيناكما!

ـ أنتم تتمنون لو أن والدي رافقكم بنفسه، اعذروه فلن يكون بمقدوره ذلك..

ـ ليس من حقنا سؤاله عن السبب حتى، قد صنع اللازم وأكثر، وسنظل شاكرين له أفضاله مدى الحياة..

رقد (فاتك) على طول جانبه الأيمن قائلاً لهم ببساطة:

ـ إنه يحتضر!

لو أن أحدا رأى الفتية بعد سماعهم لتلك العبارة الأخيرة لشك أنها قد أماتتهم!

دبت الحياة في (يزن) أخيراً، فقال كالتائه:

ـ ماذا قلت؟

ـ كما سمعت، (النمر) يحتضر..

ـ مما يشكو بحق الله؟!

ـ سرطان، مرض لعين لو أنكم تعلمون..

خيم الوجوم عليهم، وشعر الفتية بحزن بالغ كأنما سمع كل واحد منهم نبأ احتضار والده هو..

وهنا بلغهم صوت سعال، لبث طويلاً وقد ضاعف صدى الكهف من تردده، فلم يتمكن (فاتك) من مداراة ابتسامته..

ـ "يبدو وأن وجوهكم وجوه فأل حسن.. إنه لم يسعل طوال فترة جلوسه بيننا!"

ثم قال مغيرا دفة الموضوع المحزن:

ـ أعتقد بأن ملاحظة الحلواني كانت في محلها، فأمر ذلك التاجر يستحق بعضا من الاهتمام..

لقد لمحت سيارته تخرج وتدخل مرات عدة عبر الحاجز العسكري الذي يحرس مستوطنة (بيسان)..

ـ "ماذا ستصنع من بعده؟"

كذا تساءل (يزن) بنبرة خافتة.. فصمت (فاتك).. كانت رباطة جأشه غير عادية، عيناه لا تنطقان بما يعتمر في نفسه من مكنونات..

قال لهم بصوت فرغ من المشاعر:

ـ سأعيش كما عاش..

ـ وحيدا؟

رقد على ظهره قائلا لهم وبصره معلق بالنجوم التي تضيء السماء الحالكة:

ـ ناموا الآن، إن يوما حافلا بانتظارنا غداً..

وحجب بصره بساعده، فلم ينطق أحدهم ببنس شفة كي لا يزعجوه.. تبادلوا محادثة أخيرة فيما بينهم بأبصارهم، ثم رقد كل واحد على جنب، لعل سلطان النوم يرضى بمنحه سنة..

لكن خواطرهم تلاقت جميعها في فكرة واحدة.. إن (فاتك) هذا بإمكانه صنع الكثير إذا ما رافقهم في رحلتهم الخطرة غداً..

بعد ذلك استسلموا للنوم عدا (يزن) الذي كان خائفاً.. فهو يخشى الكوابيس المسيطرة على مملكة

أحلامـه، حيـث يغـدو كـل شـيء كالحقيقـة، حتـى الرعب والألم..

قـرر الاسـتلقاء والـتفكير فحـسب، لـن يستـسلم للنـوم كـي لا يـسقط ضـحية لكـابوس جديـد.. فكـر أولاً بـالنمر وولـده (فاتـك)، كيـف عانيـا الأمـرين في دروب الحيـاة الـوعرة.. لـن يـتمكن مـن الـصمود في حيـاة كتلـك الحيـاة.. كذا أقر

لنفسه دون مكابرات..

في الواقع هو لن يصمد في عالم من عوالم (فاتـك) أو (الـديب) و(نـصر) وشـقيقه (نـصار)، فعـوالمهم تقـع في جانب معتم يختلط فيه الواقع المر ـ كالفقر ـ بواقـع كالكابوس ـ واقع الاحتلال الغاشم..

كـره الـتفكير في ذلـك أكثـر، فـنهض مـن رقدتـه، وجعـل ينـبش في متاعـه عـن شـيء مـا بتلـهف حتـى وجده..

صورتها وهي جالسة على خضرة مبهجة، ما أجملها وأحلاها من صورة! اضطر للاستيلاء عليها سراً من دون علم (كوليت)، ربما لن تكون متنبهة حتى ولو رأته، فقد بدت وكأن الجنون قد أذهب بعقلها تماماً..

أراد الهمس بكلمات خافتة لها، حاول قول شيء، أي شيء، لكنه قرر فيما بعد ألا يضيع كلماته على صورة، إن الكلمات تخص بشرية من لحم ودم.. عيناها تخصان ملاكا، لن يلقبها بغير ذلك.. الملاك! فتلك هي ابتسامته، تريك ما بداخله من نقاء وروح بيضاء لأنها مصنوعة من نور رباني..

ليس الأمر بعشق طفولي أحمق، ولكن تخيل وجود فتاة جميلة بريئة بين براثن ومخالب أسوأ وأشر خلق الله قاطبة..

كان ذلك شعوره، مع الكثير الكثير من الحب أيضاً!

أبصر غشاوة، وشعر ببعض التثاقل والإجهاد اشتدا فيما بعد، تسللت العتمة إلى مقلتيه، فلم يمانع الذهاب لمملكة أحلامه مجددا..

وبعد برهة لاحظ أن الظلمة التي غرق بها تهتز وكأن ثمة زلزال طفيف يحدث، ثم انشقت الظلمة من منظوره لشقين، واحد صعد للأعلى والثاني هبط للأسفل، فوجد أمامه وجها يحدق به، وسمع بصعوبة صوتا يقول له:

ـ استيقظ..

فرك (يزن) عينيه، ثم عاود النظر ليتمكن من تمييز (فاتك) هذه المرة.. دهش حينما أدرك أنه قد استسلم للنوم بلا أحلام أو كوابيس!

ـ "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا.."

شعر بأوجاع في أماكن متفرقة من جسمه لأنه نام بوضعية غير مريحة بالمرة.. كان الثلاثي الشقي لا يزال نائماً، والفجر لا زال غارقا في عتمته.. حاول إيقاظهم قبل ملاحظته مدى صعوبة ذلك، فقد كان نومهم ثقيلا كالأفيال كما يبدو، لكنه لم يقنط من تكرار محاولاته حتى نطق (نصر) بالنيابة عن صديقيه، فقال منزعجا وعيناه مغمضتان:

ـ ماذا تريد؟

ـ قوموا لصلاة الفجر..

ـ نحن تعبون.. تعبون جداً.. اذهب بعيداً!

وواصل نومه، فقام بهز (الديب) الذي اكتفى بالقول وهو راقد كالسلحفاة:

ـ سمعت.. نحن زعران لا نصلي!

فجأة هوت المياه كالشلال فوق رؤوسهم، فاستيقظوا معاً دفعة واحدة وهم يشهقون.. نظروا لفاتك غير مصدقين، فقال لهم ببرودة:

ـ إلى صلاة الفجر!

ـ أجننت؟ القائم لا يزعج النائم حتى في الصلاة!

ـ الحديث الوحيد الذي تحفظه كما يبدو! علينا الرحيل باكراً فأمامنا درب طويل قبل بلوغنا (بيسان)..

قال (نصر) بسخط وأسنان مصطكة من شدة البرد القارص:

ـ تبا لك! أتظننا سنمرض!

ـ تخاف المرض؟ إن الطريق الذي سنسلكه سيكون مكشوفا لأول جندي يرفع رأسه عاليا لفوق، وحين يلمحنا نصير مجرد أهداف معدومة الحيلة سيتسلى كثيرا بالتمرن على إصابتها.. هنا، أو هنا، أو هنا!

ووضع سبابته على قلبه، ثم عنقه فالجبهة..

ـ "اليوم أو غدا أو بعد غد قد تصيرون من أصحاب القبور، تذكروا مشاعركم عقب إنقاذنا ـ أنا ووالدي

ـ لكم، فقد تعهدتم من أعماق قلوبكم بصون العبادة! حاولوا إنقاذ أرواحكم الضالة فمن يدر إلى متى قد يعيش الواحد منا.."

وحين ابتعد نهضوا جميعهم وساروا خلفه، وان لم تكن قناعاتهم مثاليةً تامةً..

ـ "أين والدك؟"

ـ "صلى وخرج.."

ـ "إلى أين؟"

ـ "ربما للتنزه، أو لصيد أي حيوان أو طير صالح للأكل.."

ـ "في هذا البرد؟ يا لها من حياة قاسية!"

بلغوا أرضا منبسطة تطل على منظر ساحر خلاب لواد مليء بالأشجار، فلم تتباين مشاعرهم اتجاه ما رأوه..

شهقوا لذلك المنظر باستحسان، وسمعوا (فاتك) يقول رافعا كفه:

ـ سبحانك ربي!

روعة المكان وحدها كفيلة بإجبار ابن آدم على الخشوع في الصلاة، فقد وفق (فاتك) باختياره.. أقام الصلاة، وصلى بهم بصوت خشن بعض الشيء..

وعقب الانتهاء من أداء الفريضة، نهض (فاتك) طالبا منهم تأمل المشهد الرباني للمرة الثانية، فنهضوا مدركين مقصده من ذلك.. كان يريدهم أن يتمتعوا به، أن يلاحظوا إبداع الخالق في صنعه، وإدراك بأن ثمة ما بإمكانه جعل الحياة جميلة ومستمرة رغم الدمار والقتل والموت..

أرادهم كذلك أن ينظروا وكأنهم يودعون الدنيا، وكأنهم ينظرون للمرة الأخيرة..

ـ "هلموا بنا فقد آن أوان الرحيل.."

تبادلوا النظرات فيما بينهم قبل أن يسأله (يزن):

ـ ألن تودع أباك؟

ـ هو يتوقع رحيلي، ثم انه يكره العواطف الجياشة..

ـ ربما لذلك خرج للصيد؟

ـ كلا، هي عادته ككل يوم.. أخطأت فيما فكرت به!

وتوقف هنيهة لتأمل السماء التي استحالت رمادية بسبب تكاثف الغيوم..

ـ "يبدو وأنها ستمطر اليوم.."

ثم التفت إليهم هاتفا بهم:

ـ قولوا يا الله..

استجابوا لندائه بأن ساروا وراءه كما لو كانوا ينصبونه قائدا عليهم منذ الآن..

ساروا خلفه متظاهرين أن رحلتهم مجرد نزهة لطيفة، إذ تبسم الشقيقان دون سبب معلوم، في حين أخذ (الديب) يترنم بأغنية عتيقة:

ـ "على دالعونة على دالعونة، راحوا الحبايب ما ودعونا.."



حكاية جيرشون

ببندقيته الآلية وزيه العسكري وذقنه غير الحليقة، وقف الجندي أمام الحاجز المقام على حدود (بيسان)..

إذا تأملته لأول وهلة كرهته، فكل خلجة وإيماءة تصدر عنه تخبرك أنه غير ودود ولن يكون كذلك أبدا.. كأن عبارة "ولدت لأقتل" واضحة صريحة في محجريه اللذين يحويان عينين زرقاوين متأججتين من فرط الحقد واللؤم على البشر والشجر وكل كائن حي، بل تكاد تلمحها محفورة على جبينه العريض..

إنه حيوان يتظاهر أنه بشري، ففوهة سلاحه كفيلة بتصفية والدته إذا ما تعلق الأمر برضا الرؤساء..

ولحسن الحظ أنه لم يرفع رأسه لفوق، فلو فعل ـتعمل سلاحه بسرعة مطلقا العنان لمخزون

الرصاص الراتع داخله، لتجد الطلقات بذلك مستقرا لها في أجساد خمسة فتيان يحاولون التسلل عبر طريق وعر يمر من فوق الحاجز..

كانت الخطة بألا ينبس أحدهم ببنت شفة، فكتم كل واحد منهم أنفاسه أيضا.. تمكنوا من العبور أخيرا، وعندما أدركوا نجاح الخطوة الصعبة الأولى شعروا أن الدنيا لن تكون أجمل مما هي عليه الآن..

وبعد ابتعادهم مسافة كافية عن حاجز الخطر، اقترح عليهم (فاتك) نيل قسط من الراحة، فوافقوه من أعماقهم، إذ أنهم قطعوا رحلة استغرقت ساعات طوال دون التوقف لمجرد التقاط الأنفاس..

هبت نسائم الهواء الباردة بصورة أقوى، ثم سقطت بضع قطرات من الماء على رؤوسهم قبل بدء الغزو الغزير..

وجدوا صخرة جبارة تصلح كمظلة، فاجتمعوا أسفلها شاعرين بعظامهم تتحول إلى جليد سهل التهشم، وقال (فاتك):

ـ من الأفضل الانتظار هنا، يلوح لي أن الأمطار سيطول انهمارها..

ـ هل لا زالت (بيسان) بعيدة؟

ـ نحن فعليا داخل أراضيها..

وأشار إلى مرتفع صخري بعيد علوه غير شاهق قائلا:

ـ حين نصعد ذلك المرتفع سيكون بإمكاننا رؤية المستوطنة..

سأله (الديب) وهو يهرش شعره المبتل:

ـ يبدو وأنك تزور هذه البقعة كثيرا..

ـ أحياناً أصل لمناطق أبعد، فأنا على عكس والدي الذي يفضل البقاء ضمن حدود (تل الشوك)..

ـ لابد وأنك تتساءل عما يصنعه الآن..

ـ لابد وأنه يغط بنوم عميق!

تساءل (نصر) وقد عجز عن موارية استغرابه:

ـ ألا يخاف عليك؟

ـ ما دام مؤمنا بأن الله الحارس والأعمار بيده فلماذا يفعل؟

ـ يا أخي أمركما عجيب..

ـ يبدو وأن الفكرة المتداولة أن يكون قلب الأب مشغولا طيلة الوقت على فلذة كبده..

ـ هذه فكرتنا نحن رغم أننا يتامى!

ـ وهنا قال (يزن) وقد علت الدهشة ملامح وجهه:

ـ يتامى؟ ثلاثتكم؟

ـ ما عدا (الديب)، لكنه لم يره مذ كان بسن العاشرة، فقد هرب منه..

ـ ألم يزره يوما للاطمئنان عليه؟

ـ قطعا هو لم يفكر في ذلك بتاتا..

قال (الديب) وذقنه موضوعة على ركبتيه:

ـ أظنني أسديت له خدمة العمر عندما تركته، فقد كان يدعو عليّ بالموت دائما!

ـ ألهذه الدرجة كنت تعذبه؟

ـ كنت أعذبه بصنائعي ويعذبني هو بيده ولسانه.. إننا متعادلان!

ـ ولماذا لم..

ـ كفّ عن خوض هذه السيرة المنحوسة..

ميزت آذانهم الضائقة في صوته، فآثروا عدم التدخل أكثر من ذلك..

أما (يزن) فقد شعر بالحزن.. لديه أب قوي مرح وطيب القلب، وأم حنون تخاف عليه، وبذلك هو يعلم شعور الآباء والأمهات الحقيقي اتجاه أبنائهم..

أخرج (الديب) سيجارة معوجة الطرف، وبكدر صاح:

ـ ولعة يا شباب..

كان (يزن) يملك الكبريت، لكنه كره إشعال تلكم الآفة للديب، الذي عاود دس السيجارة في جيبه وهو يشتم عندما لم يستجب لمطلبه أحد، في حين قال (فاتك) متخذا وضعية الرقود:

ـ من الأفضل أن تناموا قليلا..

فردّ عليه (نصر) وقد طفق يفرك أوصاله بيديه:

ـ وكيف السبيل للنوم في هذا الطقس؟ أشعر بالذي يجري في عروقي ماء بارد وليس دماء!

لكنه اضطجع بصمت بعد ذلك..

وقال (منذر) ليزن:

ـ "حاول نيل قسط من الراحة أيضاً يا صديقي، فقد تعبت جداً اليوم!"

لكنه لن يجازف بالنوم، فقد كره النهوض والصراخ وسط هؤلاء الفتية بزعم أنه قد رأى كابوسا.. فقرر أن يصنع كتلك الليلة، فبحث في جيبه عن صورة (أوديت) الجميلة.. بحث مجددا.. ثم جعل ينبش في متاعه حتى يأس من العثور عليها!

شعر بقلبه ينقبض بشدة وهو يسأل نفسه: أين اختفت؟ أين هي بحق الله؟ أتراها سقطت سهوا من جيبه؟

ـ "أتبحث عن هذه؟"

كان همس (فاتك) له، فالتفت إليه ليجد أنامله مطبقة على طرف صورتها!

كان راقداً يحدق بها والجميع نيام.. مدّ أنامله بالصورة، فمد (يزن) أصابعه هو الآخر لالتقاط ما يخصه..

ـ "فتاة جميلة.."

ـ "أجل، هي كذلك.."

ـ "أتمنى أن تكون بخير.."

خيم صمت ثقيل عليهما، بدده (يزن) بقوله عقب برهة تردد:

ـ كانت والدتك ـ رحمها الله ـ جميلة أيضاً!

شعر بخوف يجتاحه عندما رمقه (فاتك) بتلك النظرة النارية..

ـ "أخلد للنوم.."

لم يجرؤ (يزن) على النطق بكلمة، خاف من غضب عات يقتلعه من مكانه..

وتمدد (فاتك) مغطيا بصره بساعده كعادته كلما خلد للنوم، لكنه قال قبل أن يستسلم له:

ـ لو أني انتقمت من المجرم الذي قتلها عوضاً عن والدي!

كانت حكاية والده الأسطورية قد شغلت فكر (يزن)، فلم يتنبه لمرور الوقت ولا لتوقف المطر..

أفاق الفتية عقب نيلهم قسطا بسيطا من الراحة، وبلا إبطاء مضوا قدما في رحلتهم..

ساروا بهمة وبلا أحاديث جانبية حتى بلغوا المرتفع، وخلال دقائق كانوا قد صاروا فوقه، ينظرون للمنازل الكثيرة في مستوطنة (بيسان)..

ـ "أخيراً!"

ـ "وليس آخرا، فنحن أمام حصن الأعداء.."

قال (الديب) وهو يحك خده بإظفر الخنصر الذي يطيله حتى غدا كمخلب:

ـ أحمد الله على أنني لست صاحب الخطوة التالية!

تبسم (نصر) مشيرا صوب شقيقه قائلا:

ـ (نصار) وأنا سنظل دائما مجرد فردين في عصابة ما، أتينا للتنفيذ لا للتخطيط!

قال (فاتك) بلا تردد أو تضايق:

ـ أنصتوا أنتم الثلاثة، سأرحل مع (يزن) إلى داخل المستوطنة.. إياكم والحماقات لحين عودتنا!

شعروا جميعا أنهم قد أنصتوا إلى تخريفة غير طريفة للتو!

ـ "ماذا قلت؟"

ـ "أكره إعادة الكلام المسموع.."

ـ "سمعنا مزحة ثقيلة الظل.."

ـ "عليكم إدراك مدى كراهيتي لكل أنواع المزاح منذ الآن!"

ـ "ماذا عن الحمق؟ إنك تحاول الانتحار ومعك روح هذا الفتى، لا استطيع تخيل مدى جنونك هذا!"

ـ "إذا كان الفتى خائفا ذهبت لتقصي الأمر وحدي.."

أسرع (يزن) يقول متنمرا:

ـ أؤكد لك أنني معك في كل خطوة مهما كانت..

ـ هذه شجاعة، هلم بنا إذن، واترك أمتعتك هنا..

عوى (الديب):

ـ ستهلكان أيها المجنون! هل فقدت رشدك؟

ـ كن متفائلاً بعض الشيء.. بالمناسبة، إن لم نعد قبل حلول الظلام فبإمكانكم الرحيل!

ـ يا لها من نعمة! إذن فهنا تنتهي رحلتنا!

وهكذا هبطا المنحدر، في حين رصدتهما أعين الفتية المتسعة وقد شعروا باستحالة سير الأمور على ما يرام، فهو الواقع بكل قذارته وتعسفه، فما الذي يمكن صنعه في واقعهم الصعب والمتعسف؟

وحين وصلا إلى الأرض الممهدة، وسارا على طريق مسفلت، قال (يزن)

بتوتر عارم:

ـ أشعر بالخوف..

ـ إياك وإظهاره أسمعت؟

ـ إننا نجازف هكذا يا (فاتك)..

ـ أريدك صامتاً من الآن فصاعداً، فأنت أبكم!

ـ أبكم؟

ـ أجل، ولا كلمة، تذكر أنك أبكم، اتفقنا؟

لم يتمكن (يزن) من الإجابة لفرط دهشته، لكنه قرر مجاراة (فاتك) في خطته لأنه لا يملك سوى ذلك!

طريقة بناء المنازل وحدها أثارت اضطرابه، فهي غير متجاورة أحيانا، ومتجاورة لدرجة التلاصق أحياناً أخرى..

أما عن الأسوار فهي عالية لدرجة مبالغ بها، كأنما القاطن بالداخل يدرأ عن الزائر أسرارا خاصة لدرجة الخطورة!

أطلعه قلبه بأن (أوديت) لا تزال حية داخل أحد هذه المنازل حتما، تحتجزها تلك الأسوار اللعينة كالحصون المنيعة..

من بعيد يقترب أحد المدنيين..

يرتدي الطاقية الضيقة في مؤخر رأسه من فوق، لحيته كثة وشعره مجدل على جانبي رأسه..

كان مظهره باعثاً على التشاؤم، خصوصا وأن ثيابه سوداء كريش الغراب.. وقام برمقهما بنظرات تقطر سما، فهبط قلب (يزن) وبصره للأرض، شاعراً بالرجل يخنقه بتلك النظرات الكريهة..

ـ "ما شلومخا؟ (كيف حالك)"

واصل الرجل طريقه دون أن يرد، ليس لأنه شك بشيء، بل لشح وده! أما (يزن) فقد حدج (فاتك)

بنظرات مندهشة، وسأل الفتى الذي سار واثقا ويداه خلف ظهره وكأنه يتنزه:

ـ هل تتقن العبرية؟

ـ ماذا قلنا؟ أبكم.. أي ولا كلمة!

ـ نسيت..

وصمت بعد شعوره براحة نسبية، فالفتى يمكنه صنع الكثير بمقدرته تلك، حقا إنه لشيطان موهوب! ولكن كيف تراه تمكن من تعلم لغة عدوه؟

فجأة توقف (يزن) مشدوها بعمق، ونسى موضوع البكم برمته حين قال متلهفا:

ـ أنظر هناك..

نظر (فاتك) ليفهم ماهية الذي استرعى انتباه (يزن) بهذا الشكل، فأبصر شلة من الفتيان اليافعين، واحد منهم يجلس فوق سقف سيارة ملامسا بقدميه غطاء المحرك، أما الباقون فيستندون على الأبواب..

وقد كانت سيارة نصف نقل ذات لون ازرق سماوي!

قال (فاتك) عاجزا عن اعتراض طريق ابتسامة لفمه:

ـ أمعقول هذا؟ لابد وأن الله يسدد لنا خطانا!

خفق قلب (يزن) بعنف وقد تعلق بصره بالسيارة، في حين قال له (فاتك) بغلظة:

ـ ولا كلمة من الآن فصاعدا، حتى ولو رأيت الفتاة نفسها!

أرجح (يزن) رأسه طائعا، وسار خلف (فاتك) الذي جعل سبيله اتجاه أولئك الفتية.. كانوا يتمازحون فيما بينهم، إذ يمكن تمييز لكمات الدعابة عن لكمات الشجار، وان كانت لكمات الدعابة تؤدي في كثير من الأحيان إلى لكمات الشجار!

علت أصواتهم صاخبة، وسمع (فاتك) ألفاظا نابية وشتائم مقذعة..

وهنا دفع الفتى الأصهب الذي يجلس فوق السيارة جاره دفعة قوية بقدمه، ووثب يلحقه شاهرا مطواة من نوع يمكن طي نصله داخل المقبض بإدارته، فصاح الأخير وهو ملقى على الأرض بلا حيلة:

ـ كنت أمازحك فحسب يا (جيرشون)، ما خطبك؟

ـ أكره مزاحك البغيض، فلا تمزح معي مجددا..

ـ وهو كذلك.. ابعد هذه المطواة عن وجهي أرجوك!

وخزه (جيرشون) وخزة مؤلمة على خده، وأدار النصل بين طرفي المقبض، ثم رفع وجهه عاليا حتى نافذة المنزل المطلة على الساحة باسما بغرور..

هناك، كانت فتاة تنظر إليه متلصصة من خلف الستائر، لها نضج امرأة رغم صغر سنها..

أخذت تداعب بأصابعها خصلات شعرها الأسود الطويل، وهي تمعن النظر في عيني (جيرشون) العسلية بحدقتيها الزرقاوين، كأنهما حجرا زمرد نادر بريقه يخطف الأبصار ويقشعر الأبدان..

لكن أحدا منهم لم يجرؤ على التصفير في حضور (جيرشون).. إن ذلك العرض الفاتن له وحده، لبنيانه المعتدل وتقاسيمه الشرسة ـ الوسيمة رغم ذلك ـ، كأنه مجرم أثيم قضى جلّ حياته القصيرة في إصلاحية الأحداث، وفي ذلك قسوة تجذب الفتيات مثيلاتها، ومهابة ترهب أمثالهم من الفتية..

ومع ذلك عجزوا عن منع نظرات الحسد والرغبة والحسرة من البزوغ في أعينهم، والتي تتفحص تلك

الفتاة بنهم وشغف، فهي لن تكون ملكا لأحدهم يوما، عدا (جيرشون) الشرس.. أليس هو الأقوى؟ أليس هو الأوسم؟

كان (جيرشون) يعشق التجرع من سحر تلك العيون الزرق حتى الثمالة..

أحيانا يشعر ـ دون أن يدرك لذلك سببا ـ إن نظرات فتاته له تحمل كثيرا من المكر في طياتها! لذا لم يكن يقوى على إطالة التحديق بوجهها، فكان ينقل بصره بعيداً، ومن ثم يعود لشبحها الذي يبرز فينة ويتوارى فينة خلف الستائر شبه الشفافة، ومن ثم يعاود النظر إلى رفاقه بحدة كيلا يشعرها بضعفه اتجاهها..

ـ "بوكر توف! (صباح الخير)"

اتجهت أنظار الجميع إلى ذلك الوافد الجديد غريب الملامح، يرافقه فتى يبدو عليه شيء من الارتباك..

أظهر (جيرشون) نظرته التي يحب أن يرمق بواسطتها وجوه الذين لا يطيقهم، ولم يرد التحية، وبالتالي لم يرد أحد!

قال (فاتك) مزمعا ألا يمحو نظراته الودية:

ـ أفاكيشخم! (عفوكم) لكنني أبحث عن منزل أدون (بنحاس)..

بدا (جيرشون) كذئب أصهب وهو يثبت بصره في ملامح (فاتك) وكأنه يقيس له طوله وعرضه، وشعر (يزن) بانزعاج شديد أجاد إخفائه من نظرات الفتى اليهودي لهما، والتي تقطر لؤما وشراسة بكل وضوح..

شعرت الذئاب الفتية أن قائدها غير مستريح للوافد الجديد، فأحاطت به للمساندة وللقتل لو استلزم الأمر..

ـ "ألا يعرف أحدكم أين يقطن أدون (بنحاس)؟"

دنا (جيرشون) من (فاتك) حتى كاد أن يلتصق به، وببرودة الصقيع أجابه:

ـ لو (كلا)

ـ توف! (حسناً)

تأرجحت المطواة في قبضة (جيرشون) منتظرة إيلاجها في اللحم البشري وإسالة الدماء منه، إلا أن ذلك لم يرهب (فاتك) الذي ظلّ مخيفا بشكله ونظراته وإن بدت ودية!

شعر (يزن) بأن روح التحدي قد استيقظت بغتة داخل أعماق (فاتك النمر)، إذ فوجئ به يقرب وجهه من وجه غريمه قائلا له بنبرة ذات بأس شديد:

ـ تودا لخم! (شكرا لكم)

واستدار لكي يرحل، في حين اشتم (جيرشون) ساهما رائحة التحدي في طريقة نطق (فاتك)، الذي نقل بوجهه ليزن مشيراً له كي يتبعه على الفور، فرفع من صوته قائلاً باحتداد وهو يضع يده على كتفه لإيقافه:

ـ لعمود! (قف)

توقف (فاتك)، وبهدوء استدار، فسأله اليهودي الأصهب:

ـ مي زه بنحاس؟ (من هو بنحاس هذا؟)

ـ دودي (عمي)

تأمل (جيرشون) خصمه بتمعن، ثم قال مشيراً إلى (يزن) دون النظر إليه:

ـ مي بلوندي؟ (من الأشقر)

ـ زه آحي (هذا أخي)

وهنا نظر (جيرشون) إلى (يزن)، فمنع الأخير الرجفة من بلوغ أوصاله بصعوبة..

ـ ما شماك؟ (ما اسمك؟)

شعر (يزن) بالهلع، فقد أدرك بأن الفتى يخاطبه، لكن (فاتك) تدخل كالعادة لإنقاذه:

ـ هو إليم (هو أخرس)

ظهرت نظرة شك في عيني (جيرشون)، محدقاً في (يزن) كما لو كان يبحث عن الحقيقة في ملامح وجهه..

ـ "منزل من هذا؟"

التفت (جيرشون) إلى (فاتك)، فوجده يتأمل أسوار المنزل..

ـ "منزل أدون (عميحاي)، لم تسأل؟"

ـ "والمنزل الملاصق له؟"

ـ "منزلنا، لم تسأل؟"

ـ "نعيم! (ظريف)"

ضاعف (جيرشون) من نظرات الشك المصوبة اتجاه (فاتك)، الذي حمل وجهه طابع عدم الاكتراث واللامبالاة معاودا الاستفسار:

ـ وتلك السيارة الجميلة، لمن هي؟

ـ لماذا؟ أترغب بشرائها؟

ـ مجرد سؤال..

ـ إذن لا تسأل!

ـ ترغيع إت عتسمخا! (هدئ نفسك) إنه مجرد سؤال فحسب!

شعر (جيرشون) بضغط زائد في أعصابه، وبأن زمام السيطرة يكاد يفلت منه، فقال بصرامة لاستعادته:

ـ هذه سيارة أدون (شيكيد)!

ـ ومن يكون؟

ـ عمي..

عاود (فاتك) تأمل المنزلين، ثم وجوه الفتية الناقمة، وأخيرا وجه (جيرشون) حيث قال له باسما وهو يهم بالرحيل:

ـ شلوم! (وداعا)

ـ لهتراؤوت! (إلى اللقاء)

نطقها (جيرشون) بمقت جم.. ثمة أمر لا يريحه مطلقاً، فقد شعر بأن سيطرته المزعومة لم تكن مفروضة مهابة كما يجب لها أن تكون.. شعر أن الغريب بدا مثيرا للرهبة والجسارة أكثر منه!

شعر كذلك أن الفتى قد سخر منه! فقد كان يسأل بثقة وصلابة، في حين كان (جيرشون) يجيبه عن جميع تساؤلاته كطفل أخرق ينتظر قطعة من الحلوى كمكافأة له على حسن صنيعه!

كاد أن يجن لذلك التصور المهين بحقه، وكاد في اللحظة التالية أن يأمر رفاقه بالانقضاض على الفتى الغريب وتمزيقه شر تمزيق، إلا أنه تمنع عن ذلك تحت أنظار فتاته خشية اتهامها له بالجبن لعدم قدرته على تدبر أمر الفتى لوحده..

والكارثة أنها ستكون محقة في ذلك! ثمة ما جعله يستشعر قوة غريمه، بأنه أقوى منه وأصلب بمراحل، وبدخوله العراك ضده سيهزم أمام أعين الجميع هزيمة منكرة.. وبالأخص أمام زوج من العيون الزرق الزمردية!

رفع وجهه عاليا كي يغسل همومه بفتنتها، فهاله أن يجد نظراتها متتبعة خطى الفتى الآخر الذي سار في طريقه برفقة شقيقه الأخرس!

قرأ شرودا في نظراتها الخلابة.. أهو إعجاب من نوع ما؟ أم افتتان؟ ربما كان حبا من النظرة الأولى!

ظهر نصل المطواة في قبضته، فهو لن ينتظر ليعلم، وزاغت نظرة جنونية في عينيه مزمعا ذبح الفتى ونثر أشلائه في الهواء..

لكنه ما إن هم بالانطلاق حتى فوجئ باختفائهما، فقد رحلا..

رفع بصره جهة النافذة داعيا أن يكون متوهما فحسب، ففوجئ بفتاته قد اختفت بدورها!

طأطأ ببصره أرضا قبل نقله جهة الطريق الممتد الذي رحل منه غريمه الجديد.. وبحقد جعل قلبه يتآكل همس بشرود قاس:

ـ مخوعار ملوخلاخ! (فاحش قذر)

حكاية أورلي

تناولت سيجارة من العلبة السرية التي تخبئها أسفل وسادتها وقداحة، ثم هرعت إلى حجرة شقيقتها الصغرى..

لم تكن (أورلي) تدرك بوضوح سبب ارتياحها بالحديث مع (حنا) التي تصغرها بسنتين، ربما لنضج عقلها وحسن تفهمها رغم صغر سنها، و(أورلي) كانت بحاجة لمن تفرغ عنده شحنة أفكارها المحمومة والسلبية!

دخلت الحجرة بغير استئذان كعادتها، لكن (حنا) لم توبخها لأنها أخيراً اعتادت الأمر.. كانت عاكفة على مطالعة رواية، وبدت مستغرقة بالقراءة تماماً..

إلا أنها قالت فجأة دون رمق شقيقتها بنظرة واحدة:

ـ أرجو ألا تحاولي التدخين في حجرتي..

تجاهلتها وهي تضع طرف السيجارة بين شفتيها، وأشعلتها باسمة بتهكم قبل توجهها نحو النافذة وقيامها بفتحها..

تنهدت شقيقتها باستسلام، ثم قالت ببرودة:

ـ عدت لممارسة ألاعيبك؟

ـ تلك الألاعيب تضفي على الحياة لذة خاصة..

ـ ألاعيبك قاسية تفطر القلوب!

ـ يجب أن أكون قاسية! هكذا تكون ألاعيب الهوى يا فتاة، لن تجدي بها سوى القسوة!

ـ تلك ألاعيب الفجور!

ـ تتهمينني بالفجور يا أختاه؟ ماذا عن (عنات) إذن؟

تنهدت (حنا) قبل أن تقول مبعدة الرواية عن ناظريها:

ـ حبنا أنا و(عنات) طاهر عذري!

ـ يا له من حب ممل ومضجر إذن!

ـ لن تتعرفي الحب أبدا يا (أورلي)، ليس بطريقتك أنت..

همست الفتاة الفاتنة وهي تلقي برأسها في حجر شقيقتها التي حمل وجهها مسحة من الجمال والاتزان:

ـ أتراهنين؟

ومن شفتيها النهمتين أطلقت تنهيدةً ملوثةً برائحة دخان السجائر، فتبسمت (حنا) أخيرا..

تساءلت وهي تداعب شعر شقيقتها الأسود الجميل:

ـ كل هذا لأجل (جيرشون)؟

سمعتها ترد بضجر ولربما بازدراء أيضا:

ـ فليذهب (جيرشون) إلى الجحيم! فهو مجرد طفل سخيف يهوى العبث كالصبيان..

لم تصدق (حنا) أذنيها.. (جيرشون) فارس الأحلام يذهب إلى الجحيم؟ وما عساه يصنع هناك؟

ـ "أحقا كنت تتحدثين عن ابن العم (جيرشون)؟"

ـ "ومن غيره؟"

ـ "ما الذي استجد بينكما؟ هل تشاجرتما؟"

ـ "وهل يجرؤ على إزعاجي بكلمة؟"

ومتهكمة أضافت متأملة أظافرها المطلية بلون وردي شفاف:

ـ إنه كالخاتم في إصبعي!

ـ أين المشكلة إذن؟

ـ تلك هي المشكلة!

وعبس محياها الجميل وهي تقول نافثة المزيد من الدخان:

ـ إنه يحاول إرضائي بشتى الوسائل ولفت أنظاري إليه طيلة الوقت..

وأنا لكي أشعر بالعشق علي إرضاء من أحب، وبذلك أشعر بروعة الحب..

ـ غريب أمرك يا أختاه، ظننتك تعيشين حكاية حب معه..

ـ إنه مجرد أداة للتمرن، دمية للهو لا أكثر..

ـ قول قاس لا يستحقه لمجرد أنه يحبك..

ـ أريد أن أحب وأن أحب..

ـ يا للعجب! تريدين الاكتواء بنار الحب؟

ـ هي أمنية خالصة من أعماق القلب!

رمقتها (حنا) بنظرة شك قبل أن تسألها:

ـ يلوح لي أن أمرا قد استجد اليوم، لنقل: شخص ما؟

دهشت لرؤية حمرة الخجل تلون وجه (أورلي) للمرة الأولى، فأقرت لذاتها سراً بأنها هكذا أجمل وأروع.. وردّت (أورلي) بعدما أطلقت تنهيدة من أعمق أعماق قلبها المتواثب بين أضلعها:

ـ صلب متصلب، كتمثال نحت في جوف جبل..

ـ أهو وسيم؟

ـ كجثة ميت!

ـ يا للشر الرائع بداخلك!

ـ بإمكاني تحويله إلى حب لأجله هو.. هو فقط!

ـ ومن هو؟

نهضت الفتاة لترمي السيجارة التي أنهتها من النافذة، وتدور حول نفسها شاعرة بروحها تتحول

لـروح فراشــة هانئــة، وبــأن جـسدها قـد صـار خفيفـا كريشة يتلاعب بها الهواء..

قالت بهيام ورأسها مرفوع لفوق وعيناها مغمضتان:

ـ هو الذي انتظرته منذ زمنٍ!

هو من تمنيت امتلاكه منذ زمنٍ!

هو من لا اسم له، لكنه كالقبر، كالحزن، كالغروب وقد تجسد في صورة بشر!

هتفت (حنا) مشدوهة من شدة الإعجاب:

ـ أأنت من يقول هذا الشعر الجميل؟!

ـ كنت تظنينني مجرد بلهاء!

ـ بل أنت شقيقتي الماكرة الأريبة، لكن سحر العشق أودى بذلك كله كما يبدو!

ـ إذن فقد سحرني بحق.. آه لو رأيت ذلك البريق الغامض في عينيه، مخيف وآسر بصورة لا يمكن وصفها!

بنبرة قلق همست (حنا):

ـ إنها لعيون شر تلك التي وصفتها يا أختاه..

ـ بل هي عينا فارس، فارس شجاع لا يخشى مواجهة واحد أو عشرة لأنه واثق من مقدرته على دحرهم جميعاً!

ـ رأيته من النافذة إذن، لابد وأن (جيرشون) قد حاول التحرش به..

ـ ومن ثم غدا كخائب لا يفقه شيئا أمامه!

ـ وبتلك البساطة تخليت عن ابن العم (جيرشون)؟

وقربت فمها من أذن (أورلي) لتهمس:

ـ لغة الجسد كلغة القلب مسألة لا ينبغي الاستخفاف بها، طريقة مثلى للتعبير عن الحب لكن بشغف أقوى.. يجب أن يتوّج بالزواج، والإخلال به بطريقتك ضرب من ضروب الخيانة..

ضحكت (أورلي) ملء فمها صائحة:

ـ بربك يا (حنا) لا تبالغي! فأنا و(جيرشون) لسنا بزوجين!

ـ من المفترض أنكما أكثر من ذلك، أنتما حبيبان!

باستخفاف قالت:

ـ ليس (جيرشون) فأنا أكرهه!

ـ تكرهينه؟!

ـ أجل، أكره الفتى حينما يمارس ألاعيب الصغار كالمشاجرات والمطاوي والشتائم السافلة، والتظاهر بأنني فتاته التي امتلكها لمجرد أنه أراد ذلك!

ـ أنت تظلمينه يا أختاه..

تبسمت (أورلي) ابتسامة غير بريئة هامسة بتخابث:

ـ ألأن (عنات) شقيقه الأصغر؟

قالت (حنا) بهمس مرتبك:

ـ لا علاقة لعنات!

ـ كفي يا فتاة عن ترهاتك! فقد فهمت عشقك لأني عرفت أخيرا معنى أن يكون المرء عاشقا..

ـ أنت تعبثين كعادتك..

شعرت (أورلي) بغضب عارم يجتاح نفسيتها فصرخت:

ـ أنا شقيقتك الكبرى يا فتاة، فإياك والتمادي..

شعرت (حنا) ببعض الخوف يمسسها، فهمست خاضعة:

ـ آسفة..

إن لأورلي محبة خاصة لدى والدهما، في حين تكاد هي أن تكون مجرد قطعة أثاث مهملة أو لعبة أطفال بالنسبة للرجل..

لطالما بكت بألم لقاء ذلك، لكنها تمكنت من كتم آلامها عنهما، كثيرا ما تمنت الذوبان في صدر والدتها الدافئ الذي غاب عنها وعن أسرتها المنكوبة.. هي لا تعلم ما إذا كانت أمها بالحنان الذي تخيلتها به دائما، فقد رحلت إلى العالم الآخر الموحش عقب ولادتها مباشرة، مخلفة النفور بينها وبين والدها

وشقيقتها الجميلة..

لكن ذلك لا يمنع حقيقة أن (أورلي) تحب شقيقتها الصغرى.. (حنا) كانت تحمل مشاعر مخالفة لذلك، فكثيراً ما تمنت موت شقيقتها الجميلة!

كانت تشعر بكثير من البغض اتجاهها، ولكن أحياناً أخرى كانت تحتويها وترتاح لها عندما تكون لطيفة ومسالمة، وهي تصير كذلك فقط عندما يتعلق الأمر بإفشاء سر لإراحة ضميرها المثقل بالذنوب والآثام،

حيث تود مشاركة همومها وأحاسيسها مع شخص ما.. وحيث إنه لا توجد أم فهنالك ـ على الأقل ـ أخت! فالأب لا يصلح للتشاطر الأنثوي على كل حال!

غرقت في دوامة الخواطر تلك وقد تحولت ثرثرة شقيقتها لمجرد كلام سخيف لا يفهم..

لم تخرج من ذلك الفيض إلا حينما هزتها (أورلي) بحدة..

ـ "أتنصتين إليّ يا فتاة؟"

ـ "أجل."

ـ "إلى ماذا؟"

ـ "إلى ينبوع المشاعر الدافئة الذي يكاد يغرق حجرتنا!"

تبسمت (أورلي) برضا وسعادة أخيرا، في حين سألتها (حنا) بلا اكتراث:

ـ وأحسب أن حبيبك ذاك يقطن هذه الأنحاء حديثا؟

ـ بل هو غريب عنها، أظنه قدم للسؤال فحسب..

ـ عما يسأل؟

ـ عن أمر يخصه هو!

ـ إذن فقد رحل بعد ذلك..

ـ للأسف..

ـ ودونما رجعة ربما..

مررت (أورلي) أناملها على صدرها قائلةً بصوتٍ دافئٍ وزرقة عينيها في شرود:

ـ إلا هذا، فقلبي ينبئني أنه عائد مرة أخرى!



حكاية عميحاي

وضع (الديب) قدمه على صخرة مرتفعة عن الأرض، فبدا كالريان في مقدمة السفينة..

صوّب وجهه اتجاه (فاتك) الجالس على صخرة، وبطريقة المستنكر الهازئ قال:

ـ أقسم بالله العظيم إنك لمجنون!

قال (نصر) وهو يقذف بقطع حصى في يده إلى هدف غير معلوم:

ـ أوافقك الرأي..

في حين بقى (نصار) على صمته المعتاد، فقرر (يزن) مشاركته ذلك الصمت..

لم يرد (فاتك)، بل ظل هادئاً مبتسماً بسمته الشبيهة بالسراب، لا تكاد تتأكد من وجودها على ثغره..

وعلى المنازل كئيبة المنظر وكأنها شواهد قبور، ألقى (الديب) بنظراته مردفاً:

ـ إذا تسللنا ـ أنا وأنت و(نصر) ـ في جنح الظلام إلى هناك، وتم ضبطنا ومعرفة أننا عرب، فسنذبح دون نقاش..

تكلم (فاتك) أخيرا فقال:

ـ نحن مجرد لصوص نسرق المنازل..

ـ لصوص عرب.. قد تنجح أنت في إقناعهم، ولكن ماذا عني وعن (نصر)؟ لا تقل لي أن نتظاهر بالبكم أيضاً، فهي خطة في منتهى السذاجة، وصدقني سيكشفون أمرنا بسهولة تامة فهم ليسوا حمقى..

أطرق (فاتك) مفكراً لوهلة، ثم نطق بهدوء:

ـ معك حق، إنها خطة فاشلة..

ـ حمداً لله! للمرة الأولى يقتنع بكلامنا..

ـ لذا سأذهب وحدي!

ـ ألم أقل لكم أنه مجنون؟!

نهض (فاتك) وسار حتى توقف بجوار (الديب)، فقال متأملاً منازل المستوطنة:

ـ لن تكونا معي لحظة التسلل، بل في مكان آمن قريب تنتظران فيه حتى أتمكن من معرفة مكان الفتاة، ثم أقوم بإخراجها بوسيلة ما، ونتعاون معا على الهروب!

ـ حقاً؟ وكيف ذلك؟ ستقتحم المنزل لإخافة قاطنيه بالزعيق، فيهربون لتدخل حضرتك كي تنجد الفتاة؟ إن هذا أسخف ما سمعته في حياتي كلها! وأرى بأن العودة لديارنا سيكون أفضل ما نفعله الآن..

وثب (يزن) من جلسته كالجندب صائحاً:

ـ كله إلا هذا!

نظر (نصر) إلى (يزن) صارخاً بغيظٍ:

ـ لم نود التضحية بأرواحنا؟ وفي سبيل من؟

ـ في سبيل فتاة بريئة خائفة، لا ذنب لها أن تضيع في غابة سوداء ملأى بوحوش لا ترحم..

ـ سبب غير كاف لهلاكنا جميعا من أجل فتاة مسيحية تعلق قلبك بها!

أترغب بالموت مبكرا؟ بالتأكيد أنا لا أرغب به، ماذا عنكم أنتم؟

قال (يزن) بنبرة خفيضة وقد احتقن وجهه:

ـ وهناك.. هناك المكافأة!

ردّ عليه (الديب) هذه المرة بفتور كاسح:

ـ كفى يا (يزن)! يجب أن يعلموا الآن أن مكافأةً هنالك.. لقد اختلقت الأمر فحسب!

استحالت عينا (نصر) لسعير متأجج وهو يصرخ:

ـ بم خرفت للتو؟!

نظر (الديب) إلى (نصر) قائلاً بلهجة من كره الدنيا بأسرها:

ــ لا مكافأة، لا مال.. كانت مجرد خدعة مني لدفعكما إلى المجيء معي، هذا كل ما في الأمر!

ـ سأسلخك حياً!!

وانقض عليه فصدمه بالصخرة، وتشابكا في عراك شرس استخدما فيه القبضات التي تحمل اللكمات العنيفة بإسراف..

بقي (فاتك) جالساً، أما (نصار) فقد نهض ليضع بدنه العريض وسط النزال العنيف، فعجزا عن التشابك مجدداً..

صرخ (نصر) من خلف ظهر شقيقه:

ــ كذاب! كانت ساعة سوداء عندما تعرفت على محتال مثلك!

ـ اذهب إلى الشيطان!

ـ "كفى!"

دوت صيحة (يزن) حازمة ومهدئة في نفس الوقت..

قال محاولا ألا يتلعثم:

ـ سامح (الديب) يا(نصر) أرجوك، فالخطأ خطأي منذ البداية..

ـ بكل تأكيد هو خطؤك أيها النكرة الأشقر!

ـ معك حق، ولكن..

ـ أحسبتني على أتم الاستعداد لتلقي رصاصة في سحنتي لأجل دميتك التي تبحث عنها؟

ـ هي ليست دميةً، إياك والتمادي أكثر..

ـ اخرس! أنت مجرد صعلوك صغير قد يضيع وسط الزحام إذا ما أفلتته يد أمه! دعني أحزر.. لابد وأنك فخور بصداقتك مع الفتاة، ولربما أهدتك منديلا أو قطعة خردة من أجل الحب والحظ! ارتحلا معا للجحيم! فسأعود أدراجي..

ـ تباً لك!

انقض (نصر) على (يزن) بغية قتله، لكنه اصطدم هذه المرة بذراع (فاتك) ذات العروق الأنبوبية، فصاح ثائرا:

ـ إليك عني وإلا..

ـ وإلا ماذا؟

شعر (نصر) بضغط هائل ومؤلم يعتري ساعده الأيسر، لكنه وبعناده تجاهل ذلك صائحا:

ـ ابتعد يا مسخ الجبل وإلا أحلتك إلى.. أي! ركام!

تبسم (فاتك) وهو يفلت (نصر) بعد تيقنه من تخفيف حماسته، وقال له:

ـ أنت صلب لا يرضخ بسهولة.. أهنئك!

ـ لا تسخر مني!

ـ أنا لا أسخر..

ـ تبا لك!

ـ إذن؟

ـ إذن ماذا؟

ـ هل نعود رفاقاً طيبين كما كنا مع بعضنا؟

أطلق (نصر) ضحكةً ساخرةً قبل أن يقول باستهانة:

ـ ابتعد عن طريقي وإلا هشمت لك رأسك!

ـ أنت لا تعني ما قلته..

وربت على كتفه بمودة عجيبة، لكن (نصر) دفع يده قائلاً بحدة:

ـ لا تلمسني..

ـ لا تفعل ذلك..

ـ إليك عني! (نصار)، هلم بنا..

بدا الفتى الضخم مترددا، فصرخ (نصر) وهو يدنو منه:

ـ مالك أيها البغل؟ أأنت أصم؟!

ـ لا أظنها فكرة سديدة يا (نصر)..

صفعه (نصر) بقسوة مباغتة صارخا في وجهه بغلظة:

ـ وصرت الآن فقط تفكر؟!

صمت (نصار) وقد امتلأت نظراته بلاهة اتجاه أخيه، في حين قال (الديب) بقسوة:

ـ ما كان عليك فعل ذلك..

ـ اخرس أنت يا وجه المصائب!

ساد الصمت جميع الأطراف برهة، قبل أن يقطعه (نصار) قائلاً بجفاء:

ـ سأبقى لمساعدة الفتى..

وقال (الديب) باحتداد:

ـ وأنا غيرت رأيي، وسأبقى أيضاً..

وبقي (نصر) على صمته المريب، ثم لم يلبث أن همس يسخط وهو يتجه لزاوية بعيدة عنهم كي يتأمل المستوطنة:

ـ لا أمان بهكذا دنيا..

فهم الجميع أنه تراجع عن موقفه العنيد السابق، وبدا (يزن) أكثرهم تأثراً لذلك، فقال وهو ينظر إلى (نصر) الذي بدا ساهماً كما لو كان نادماً على ما قاله وفعله مع شقيقه:

ـ إنني مدين لكم جميعا..

وتبسم (فاتك) بسمةً متجهمةً وكأن الأمر لا يعنيه، ثم رفع بناظريه للأفق متمتماً:

ـ حين يحل الظلام نباشر بتنفيذ مخططنا الواهن!

ولم يكذب خبراً..

بعد أن بسط الظلام ملكوته، وعند انتصاف الليل تقريباً، وحين انطفأت معظم أنوار منازل المستوطنة، تحرك الفتية الثلاثة.. فهبطوا المنحدر بخفة وحرص، وساروا مدة حتى صاروا داخلها..

التفت (فاتك) قائلاً لرفيقيه بصوت خفيض:

ـ الحذر الحذر من الآن فصاعداً، سيرا خلفي فحسب..

ـ أنت القائد..

اقتادهما عبر الزوايا المعتمة للمنازل.. كان (فاتك) يتسلل بحنكة، وطوال الطريق كانت الظلمة تطمس معالم ثلاثتهم تماماً مانحة إياهم الأمان، لذا كانت أعصابهم شبه مسترخية..

أشار (فاتك) إلى نقطة ما هامساً:

ـ هناك..

حيث السيارة الزرقاء واقفة في مكانها.. كان منزل (عميحاي) مضاء الأنوار، أما منزل (جيرشون) فغارق في الظلام..

ـ "ماذا الآن؟ كيف سنعرف مكان الفتاة؟"

نظر (فاتك) لهما وهو يشير باتجاه منزل الفتى (جيرشون)..

ـ "سنتسلل إلى المنزل الذي نام أصحابه، نبحث فيه ونراقب منه المنزل الآخر.."

ـ "وهو كذلك.."

ـ "انتبهوا، أحدهم قادم!"

أسرعوا يلتصقون بالجدار، وأطل (فاتك) بنصف وجهه للاستطلاع، فرأى رجلاً بلحية بنية، يترنح في مشيته بصورة مريبة..

- "إنه سكران!"

سمعوا الرجل الثمل يغني بصوت نشاز وهو يقترب مترنحاً بشدة:

- (راشيل).. أت روتسا شنركود ياحد؟ (راشيل، أتريدين أن نرقص معا؟)

بهكازينو (في الملهى)

متاي نيباغيش شينيت؟ (متى سنلتقي ثانية؟)

أوهيفت أوتي (راشيل)؟ (هل تحبينني يا راشيل؟)

أني مفيش لاخ همتانا هازوت! (سأقدم لك هذه الهدية)

ورفع زجاجة الخمرة التي كانت في يده عالياً، ثم تجرع منها بنهم كأنه يموت عطشاً!

همس (الديب) سائلاً (فاتك):

- ما الذي يخرفه ابن الكافرة؟

ـ يقول بأنه قمامة!

ـ غريب أن يكون محقاً إلى ذلك الحد!

وانتظروا حتى يرحل، لكن الرجل جلس على قارعة الطريق كي يكمل السكرة!

شرع يهلوس ذات الهراء وهو يكرع من زجاجته، فهمس (نصر) بحنق:

ـ سيوقظ الجميع بنهيقه!

سارع (فاتك) بالتقاط حجر، فصوبه قبل أن يقذفه بكل قوته.. كان تصويبه دقيقا لدرجة مذهلة، فقد أصاب الزجاجة وهشمها ليغرق اليهودي بشرابها الخبيث!

ـ "مرحى!"

ـ "اخفض صوتك!"

ـ "معذرة!"

ومن بعيد شاهدوا الرجل الثمل يغمض عيناً ويتأمل بالأخرى فتحة الشرب التي تبقت مع عنق الزجاجة، قبل أن يهزها لأسفل وكأنه يحاول تفريغها من

الشراب! وسمعوه يقول وهو يمد بيده الممسكة بعنق الزجاجة المكسورة في الهواء:

- ملتسار، تن مايش لخم لشتوت! (جارسون، أعطني أي مشروب عندكم)

همس (نصر) بغيظ من بين أسنانه:

- لنقتل الكلب الثمل!

- تريث قليلا..

رأوه ينهض أخيرا وهو يهرش شعره كالأجرب قائلاً بتنبلة:

- أني مرغيش بكيئوت! (أشعر بالتقيؤ)

ورحل في نهاية المطاف ملقياً ببقايا الزجاجة جانباً..

- "إلى قعر جهنم يا خنزير!"

وبصق (نصر) أملاً بشفاء غليله، في حين تأمل (فاتك) جدران المنزل العالية..

- "الحقا بي.."

وبقفزة بارعة اعتلى الجدار، لكنه اضطر للرقود عليه ومد يده لمعاونتهما في الصعود، لأنهما لم يتمكنا من مجاراته..

قال (الديب) وهو يتسلق متشبثاً بقبضة (فاتك) القاسية:

ـ يا لك من عفريت! وكأنك طرت لتحط على الجدار كالطير!

وتبعه (نصر) الذي همس بحسد:

ـ آه لو امتلكت مثل تلك الخفة!

ثم شرعا يلهثان ويسعلان فوق الجدار بطريقة شبه مكتومة، فقال (فاتك) قبل وثوبه للجهة المقابلة بخفة:

ـ ما رأيكما بالكف عن الدخان كبداية؟

ـ إلا الدخان! فهو متعتنا الوحيدة في الحياة!

ووثبا خلفه، لكن وعلى عكسه أصدرا بعض الأصوات..

ـ "الهدوء التام!"

ـ "وكيف لنا فعل ما تفعله أيها العفريت؟"

ـ "سحقاً! اسمع صوتاً ما.."

جمدوا ثلاثتهم تماماً وقد استحالوا لآذان صاغية..

وهنا هبط شيء بين أقدامهم جعل (الديب) يجفل بشدة..

ـ "أعوذ بالله!"

ـ "اهدأ يا أبله، إنه مجرد هر!"

ـ "فاجأني اللعين!"

ـ "هزمت ذئباً ويروعك هر؟"

احتد صوت (الديب) كالعادة لما قال:

ـ قلت بأنه فاجأني..

ـ بهذا الصوت المنخفض سيفاجئنا أصحاب المنزل أيضاً..

ـ سحقاً لك ولهم!

تجاهل (فاتك) كلامهم متفحصا أرجاء المنزل ببصره وبصيرته..

ـ "هل هم ساهرون في المنزل المجاور يا ترى أم يغطون بنوم عميق؟

ـ "بإمكاننا إطلاق التكهنات حتى مطلع الفجر.."

ـ "الحق معك، لنتفحص الأبواب والنوافذ لإيجاد وسيلة ما للدخول، كما أننا بحاجة لمن يؤمن الحماية لظهورنا.."

ـ "لنا نحن الثلاثة؟"

ـ "بل لنا نحن الاثنان.. (نصر) سيفي بالغرض!"

اعترض الفتى بقوله:

ـ أعمال المراقبة والانتظار تصيبني بالجنون!

ـ لكننا بحاجة لها..

ـ إذن دع (الديب) يقوم بالمهمة وامنحني شرف مرافقتك، أم أنك لا تثق بي؟

أسرع (الديب) يقول وهو يحرك كفه نفياً:

ـ لا أظنها فكرةً سديدةً، ففاتك وزع الأدوار حسب الكفاءة، لذا اختارك لتلك المهمة!

ـ لأنني الأكفأ في القعود بلا فائدة والانتظار؟

ـ طبعاً!

ـ أتسخر مني؟

ـ معاذ الله! قصدت أنك خبير بالمراقبة..

ـ "أصغوا السمع!"

صمتا على الفور وقد جمدت الدماء في عروقهما، فتبسم (فاتك) قائلاً:

ـ اذهب يا (نصر) لأعلى سقف المنزل كي تراقب من هناك!

ـ أوقعت قلبي! لا مناص من التنفيذ إذن، لكن ما الذي يتوجب عليّ فعله في حال وقوع الخطر يا جناب الجنرال؟

ـ التدخل إن أمكن، ولكن في حال وقوعنا بين أيديهم سيتوجب عليك الرحيل..

ران سكون ثقيل عليهم، قطعه (نصر) بأن قال واجماً:

ـ أنتما تعلمان بأنني لن أفعل..

ـ إن لم تفعل فسيأتي شقيقك والفتى للبحث عنا حتما.. أتريد لشقيقك أن يقع بأيديهم؟

عقب (الديب):

ـ هذا لو أبقوا على حياتنا كي نتمكن من رؤية ذلك!

وردّ (نصر) مهموماً:

ـ تباً لكما! أغرقتماني في دوامة.. سحقاً! وهو كذلك، لكن هذا لن يمنعني من العودة للانتقام لكما!

وابتعد عنهما بعدما قال لهما برجاء:

ـ كونا على حذر، رافقتكما السلامة!

وشرع بتسلق المنزل من عند إحدى النوافذ للوصول إلى السقف، فتحركا للبحث عن قفل واه يمكنهما من الدخول..

سارا جنباً إلى جنب و(فاتك) يقول للديب:

ـ صديقك إنسان مخلص..

ـ أنت أول من يقول كلاماً طيباً عنه..

ثم ان الثاني سأل الأول:

ـ هل سنحاول كسر أحد أقفال النوافذ؟

أجاب الأول الثاني:

ـ بل ستحاول أنت كسر أحد أقفال النوافذ!

ـ وماذا عنك؟

ـ سأذهب لتفقد المنزل الثاني..

ـ الذي لا تزال أضواؤه موقدة؟ هل جننت؟!

ـ عاجلاً أم آجلاً سيكون علينا تفقده بحثاً عن الفتاة..

ـ حتى وإن كانت هناك، كيف ستدخل؟ وكيف ستخرجها؟

ـ دعنا نتأكد أولاً من مكان وجودها، سأعتمد عليك في عملية تفقد هذا المنزل..

ـ أيها الوغد! أتحاول وضعي أنا و(نصر) على بر الأمان بينما تلق بنفسك في أحضان التهلكة؟!

ـ دعنا لا نضيع الوقت في جدل عقيم، افعل كما طلبت منك..

ـ بل هو أمر، لكنني سأنفذه وأمري لله..

وهكذا افترقا لينفذ كل واحد مهمته الخطرة، فسار (الديب) باحثاً عن النافذة المطلوبة، أما (فاتك)

فتسلق الجدار، ووثب إلى جدار المنزل المجاور القريب، ثم هبط من فوقه على أرضية المنزل برفق وحذر..

سمع أصوات أناس يتكلمون في الداخل، فاقترب من إحدى النوافذ.. كانت مبادرة خطرة لأنه مكشوف من قبل الأنوار، فلو أن أحدهم خرج من المنزل فجأة للمحه بسرعة ويسر..

لم تفده النوافذ لأن الستائر السميكة منعته من رؤية ما يجري بالداخل، لكنه لمح خلف المنزل بابا شبه موارب.. توجه إليه مسرعا، وبحرص دنا منه محاولا تبين ما إذا كان أحدهم خلفه، فلم تلتقط أذناه شيئاً..

وهنا قرر المجازفة، فدفع الباب ببطء شديد، وأطل بوجهه للداخل.. رأى كل ما يمت بصلة لمطبخ، ولحسن الحظ كان خالياً من البشر، فقرر التمادي أكثر بمجازفته المتهورة..

دخل متأملاً أواني الطبخ والفرن والثلاجة، كل شيء يبرق كأنما تم شراؤه اليوم ولم يستعمل بعد..

استشعر بغتة اقتراب شخص ما، فسارع بالاختباء خلف طاولة الطعام التي سمح تصميمها بإخفاء

جسمه كاملاً.. سمع وقع خطوات تقترب، وصوت باب الثلاجة يفتح، ثمة من يجرع شراباً ما..

أخرج (فاتك) عينه اليمنى لتبين الأمر، فوقع بصره على الفتى (جيرشون) بذاته، كان قد فرغ من زجاجة الشراب، فأعادها لمكانها قبل عودته من حيث أتى..

نهض (فاتك) عقب مغادرة (جيرشون)، فاتجه متتبعاً الطريق الذي أتى منه الفتى اليهودي.. وجد ممراً يؤدي لعدد من الحجرات المعتمة، وفي نهايته صالة لمح داخلها عدة أشخاص يروحون ويجيئون، فتراجع إلى المطبخ..

فكر هنيهة قبل أن يقرر الآتي: عندما يتأكد من أن أحدا في تلك الصالة لم يلمحه سيقوم بتجربة الحجرات الجانبية، ودعا ربه ألا تكون موصدة بالمفتاح، كما دعاه بألا يكون هنالك أشخاصاً داخل إحداها ـ عدا الفتاة التي يبحث عنها بالطبع!

فما ان هم بتنفيذ مخططه حتى سمع الصرخة المفاجئة:

ـ "غناف!! (لص)"

هل كشفوا أمره؟ أتراه (جيرشون) الذي كشفه؟

ولكن لم لم يحضروا لغاية الآن للقبض عليه؟

أحسّ أن المنزل قد خلا من قاطنيه! ففكر: ماذا لو أن (الديب) هو من انكشف أمره؟! فاتسعت عيناه لهول التصور، وقام باختطاف إحدى سكاكين المطبخ، ودونما إبطاء اتجه للممر الذي يصل للصالة..

وهنا ظهرت له هي بصورة مفاجئة، لم يفاجأ هو.. أما عنها فلقد أطلقت شهقة ذعر خالصة!

قالت عقب برهة وصدرها يعلو ويهبط من سرعة تلاحق أنفاسها:

ـ أتا! (أنت)

كانت تلك المرة الأولى في حياته التي يشاهد فيها أنثى بهذا الشكل الفاضح!

بقي صامتاً مبلبل الفكر، فتأملته الفتاة اليهودية بلهفة وخوف قبل أن تسأله مترددة:

ـ هل ستقتلني؟

ـ فقط إذا حاولت الصياح..

ـ لن أفعل إذن..

واصلت تأمله وقد خفت ذعرها تدريجياً وصار بإمكانها التقاط الهواء بصورة طبيعية، قلبها ينبئها بأنه لن يحاول مسّها بسوء، طريقة إمساكه بالسكين وارتباكه قالا ذلك.. شعرت ببعض الثقة، فهمست وهي تشبك أصابع كفيها:

ـ هل أنت لص؟

ـ كلا..

ـ ماذا جئت تفعل هنا إذن؟

ـ أبحث عن..

ـ عن ماذا؟

وتوقعت أن يجيبها، لكنه صمت صمتاً ثقيلاً وقد بدا عليه العجز عن اتخاذ الخطوة التالية..

فجأة كزّ على أسنانه بقساوة مفرطة، وقد قبضت يده بقوة على مقبض السكين، فظنت لوهلة أنه سيفعلها الآن ويولج السكين في قلبها بكل الشراسة المعتمرة داخل قلبه هو!

جذبها إليه بعنف، ووضع نصل سكينه الحاد على نحرها هامساً في أذنها:

ـ إياك والتحرك وإلا ذبحتك..

وما هي إلا ثوان حتى اقتحم المطبخ حشد من الأشخاص، وقد كان (الديب) بين أيديهم للأسف، يطوقه شابان قويان بإحكام وقد قبض أحدهما شعره بعنف رافعاً رأسه لفوق، فرأى (فاتك) الدم يسيل من فمه وأنفه..

ثم ظهر (جيرشون)، فتحول إلى كلب مهتاج حين رأى فتاته في قبضة (فاتك) وحدّ السكين يلتمع فوق أوردة عنقها، وصرخ بجنون متقدماً نحوهما بمطواته التي شهرها:

ـ دعها وإلا..

شعر بقبضة صلبة تهوي على كتفه فتوقفه، وتقدم صاحبها ومن معه، رجل طويل القامة، رمادي الشعر، حازم النظرات، وسيم أو أنه كان كذلك في شبابه، فنظر إلى (فاتك) قائلاً له بحزم:

ـ دعها وشأنها..

ـ أطلقوا سراح رفيقي أولاً..

ـ قد نفعل ذلك وقد لا نفعل، ذلك متوقف على..

ـ على ماذا؟

ـ على مدى تعاونك لضمان عدم إراقة دم أحد..

ـ أرى دم رفيقي يغرق وجهه!

ـ هو الذي اضطرنا لاستخدام العنف معه يا بني، وصدقني أنا زاهد أشد الزهد فيه..

كانا يتخاطبان بالعبرية طبعاً، وبطريقة هادئة كما لو كانا يتفاوضان بشأن صفقة ما..

لكن (جيرشون) فقد أعصابه عندما صاح منقضاً على (الديب) بمطواته:

ـ تريد رفيقك هذا؟!

كان بالفعل يحاول طعن (الديب)، فدفع (فاتك) الفتاة جانباً وقذف بالسكين اتجاهه..

ـ "آي!! (أبي)"

كانت السكين مغروزة في يد الرجل وقد تلوثت بالدماء تماماً، فقد تحرك الرجل بردة فعل سريعة واضعاً راحة كفه المفتوحة لاعتراض سبيل السكين، التي كان نصلها موجهاً حتماً اتجاه قلب (جيرشون) المتهور..

انقض الرجل المرافق لوالد (أورلي) على (فاتك)، ولولا عون رجل آخر نحيل أصلع الرأس لما قدر عليه وحده، فقد كان هائجاً كالثور، في حين تقدم (جيرشون) ليهوي بالعديد من اللكمات على وجهه صارخا:

ـ أشيم ملوخلاخ! (مجرم قذر)

في حين عكف رجل مكتنز بمعاونة امرأة دميمة الخلقة على محاولة نزع السكين من يد والد (أورلي) التي احتضنته بجزع، وتأملت وجه (فاتك) الذي يحاولون السيطرة على ثورته بعسر.. رمقته بنظرة خاوية وهم يقتادونه مع رفيقه (الديب) إلى حيث لا يعلم إلا العليم ببواطن الأمور..

ـ "إلى القبو!"

وانطلقوا عقب صيحة الرجل المحتدة، والذي أخذ يجر (فاتك) من شعره بشراسة شديدة، حتى كاد بأن يقتلعه من جذوره، وسال عرق الأصلع النحيل الممسك بذراع الفتى الثانية ليقيد هيجانه، في حين لم يتوقف (جيرشون) ولو للحظة عن كيل اللكمات على وجه ومعدة (فاتك)، أما (الديب) فبقى صامتاً مستسلماً بين ذراعي سجانيه..

اقتادوهما إلى درجات خشبية مؤدية للأسفل، حيث يقبع باب خشبي ضخم وكئيب..

أخرج الرجل القابض على شعر (فاتك) مفتاحاً معدنياً طويلاً من جيبه، وضعه في قفل الباب وأداره ثلاث مرات، فانفتح مصدرا صوتا ثقيلا، وللظلمة الراتعة وراءه رمى الفتيان كشوالين من طحين..

سقطا أرضاً بقوة وعنف، وأغلق الباب والقوم لا يكفون عن الشتائم والبصق، وتمكن (فاتك) من سماع المزيد منها بعد إغلاق الباب، فهمها كلها رغم الضرب المبرح الذي ناله..

بقيا على صمتهما فترة طويلة، كأنهما يحاولان التيقن من رحيل الأوباش..

وطال الصمت وكأنهما مستغرقان في نوم عميق، قطعه (الديب) أخيراً عندما قال بلكنة خنفاء نتيجة لتهشم أنفه وأسنانه:

ـ النحيل الأصلع.. هل لاحظته؟

بقى (فاتك) على صمته، كلاهما بوضعية الرقود كتماثيل من حجر..

وعقب دقيقة واصل (الديب) كلامه:

- رأيت كدمة داكنة غريبة على صلعته المنفرة.. هل لاحظتها؟

- إهدأ..

- لماذا؟

- أريد أن أنام قليلاً!



حكاية حنا وعنات

تناول هو كتاباً من مكتبته الصغيرة التي تحوي صنوفا من الأدب والشعر الرومانسي، في حين جلست هي على طرف فراشه..

قرأ بنبرة شبه خفيضة إحدى صفحات كتابه:

ـ "لكن انظروا، هاهو ذا شيء أحمر كالدم..

يشق طريقه متلوياً وسط جمهرة الأشباح..

يطل من الجانب المنعزل للمشهد..

يتلوى، يتلوى بشره قاتل..

فتصير الأشباح له طعاماً..

وتشهق الملائكة بالبكاء وهي ترى..

الدود يلعق الدم البشري.."

ورفع بصره اتجاهها هامساً بارتباك:

ـ لإدجار آلان بو.. كاتب وشاعر عظيم، مات معدماً على كرسي في الشارع!

قالت له وهي تملأ بصرها بوسامته:

ـ كنت أظن الرومانسية لونك المفضل..

أجابها بارتباكه المعهود كلما أتت لزيارته:

ـ أحيانا تنبهنا السوداوية لحقيقة واقعنا الذي نعتاشه، لكن الرومانسية تجعل الحياة محتملة لا أكثر!

(إدجار آلان بو) اشتهر بقصص الرعب، لكنه يمتلك أشعارا رومانسية عن زوجته وحبيبته التي فقدها في سن مبكرة..

ولوح بالكتاب متسائلاً بقلق:

ـ أعجبتك القصيدة؟

ـ آسرة رغم هولها!

شعر بالارتياح لسماع ذلك، واسترخت أعصابه لأن ذوقه قد حاز على إعجابها، فصبّ لها العصير في كأسها وهي تبادله الابتسام بعفوية..

ـ "شكراً.."

لم يحاول الجلوس إلى جوارها خوفاً من مضايقتها.. كان يحبها بجنون العاشق المعتنق لذلك المذهب المجنون، يحب زياراتها المتواصلة له، وأحاديثها معه عن الرومانسية والسوداوية في الأدب والشعر، يحب جلستها على طرف فراشه، ومطاردة عينيها الجذابتين له ولتحركاته المرتبكة في أرجاء حجرته طيلة الوقت..

سألته وهي ترتشف العصير من كأسها:

ـ وما هو أهم عنصر في الرومانسية؟

ـ أتسألينني عن رأيي؟

ـ أجل..

تفكر هنيهة وهو يحوم كالطير الحبيس داخل قفص، قبل توقفه أخيراً..

ـ "أظنها الأنثى.."

ــ "وأنا أظنه الحب الصادق من الأعماق، حتى ولو كان حب صبي لحيوانه الأليف!"

تضايق لأنه لم يعطها ذات الإجابة الساذجة التي قدمتها هي، فقالت مبتسمة حين لاحظت ضيقه:

ـ ليس من المفترض أن تكون إجابتي صحيحة!

ـ بل هي صحيحة!

ـ وكيف تعرف ذلك؟

ـ لأن فتاة مثلك هي التي أجابت!

وصمت كأن ما قاله قد أرهقه، فقالت له معاودة تأمله بشرود:

ـ أريدك أن تجلس بجواري..

همس وقد استعاد ارتباكه:

ـ أفضل بقائي حيث أقف..

ـ وأنا أريدك أن تجلس بجواري!

بدا عليه التردد، فتبدى الوجوم عليها وهي تقول:

ـ يبدو أنني أضايقك.. معذرة!

ـ لا، لا تقولي ذلك أرجوك..

وتقدم بخطى حثيثة ليجلس بجوارها دون النظر لها، فقاومت الابتسامة التي كادت تملأ وجهها، وهمست له بصوت خفيض:

ـ أريد معرفة حقيقة مشاعرك اتجاهي يا (عنات)..

ظهر ارتباك جم على وجهه الملتفت للناحية الأخرى، محدقا للاشيء سوى لما يعتمر في قلبه من مشاعر اتجاهها..

أحبك! أحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم الرث المليء بالتعاسة والكآبة!

لكن صراخه لم يتعد حدود قلبه..

لم يشعر إلا وأناملها الهزيلة تمسك له ذقنه، وتوجهها صوبها.. حدق في جمالها بدهشة عميقة لأن ارتباكه خفت كثيراً، لكنه لم يجسر على المبادرة.. تذكر كيف كان يرى شقيقه (جيرشون) يقبل (أورلي) شقيقة (حنا) بنهم ودونما خجل على مرأى من أبصار الجميع، وتساءل بغم عن كنه الجرأة التي تدفعهما لذلك.. ربما لأن شقيقه مجرد سافل وقح! أو لأن (أورلي) تتصرف كساقطة طوال الوقت!

أين هما من الرومانسية الحقة التي يعيشها مع (حنا) الجميلة العفيفة؟

شعر بأنفاسها الدافئة تداعب وجهه برفق.. فكر بإغماض عينيه، ثم فضل معايشة التجربة بأسرها وهو متيقظ ومشاهد لكل ما سيحدث، لأنه كفيل بجعله يدوّن قصيدة رومانسية كاملة ذات إبداع خاص، ستكون (حنا) ملهمته إذن، سيشاهد وجهها في جميع أعماله رومانسية كانت أم سوداوية، وسيحلم به في كل ليلة.. سيثرثر بشعر يتحدث عن سحرها الذي خلب لبه!

ولكن وقبل اللقاء المشوق، اقتحم حجرته وبصخب بالغ شقيقه الأكبر (جيرشون)!

ثيابه غارقة بالدماء وشعره منكوش وملامحه ثائرة، فأصابهما مظهره بالدهشة والذعر!

قال (جيرشون) لشقيقه في جفاء ونظراته تطالع وجه (حنا):

ـ لقد أصيب العم (عميحاي) إصابة بالغة!

ـ أبي؟!

وهبت واقفةً جزعةً لتلتقط سترتها من على الفراش وترتديها على عجل، فأسرع (عنات) يقول:

ـ سأصحبك..

ردّ (جيرشون) باحتداد:

ـ لا، ستأتي أنت معي إلى المستودع للبحث عن الأغلال!

نظر لها مرتبكاً، فهمست له:

ـ لا عليك، سأنتظرك في دارنا..

ـ كوني حذرة..

خرجت مسرعةً تاركةً (عنات) يلتفت إلى شقيقه سائلاً إياه بتوجس:

ـ ماذا حدث؟ ولماذا الأغلال؟

اقترب (جيرشون) من شقيقه، فتوتر الأخير بشدة لمظهره القاسي كأنما فرغ لتوه من ارتكاب جريمة شنعاء، وسمعه يقول من بين أسنانه:

ـ لنقيد الحيوان الذي هاجم عمنا!

شعر الفتى بتوتر لا حدود له، فهو لا يصلح لمثل تلك المواقف.. رحل فكره وشرد إلى حيث تسير ملهمته الجميلة لدارها.. أتراها بخير؟ يجب أن تكون..

لم يكن باستطاعته معرفة أفكارها في تلك اللحظة، حتى وإن خمن فسيخطئ حتماً، لأنه سيظنها خائفةً وقلقةً على والدها الذي أصيب..

كانت تفكر به هو، وبموقف شقيقه البغيض الذي قطع عليهما أهم لحظة في حياتهما..

أما عن أبيها المصاب فليذهب للجحيم! فهو لم يحب أحداً في حياته قدر محبته لشقيقتها (أورلي).. تذكرت كيف كان يضربها دائماً، لم يفكر قط بشراء لعبة لها مذ كانت طفلة.. لقد ذهب الدلال كله لأورلي، واحتفظت هي بجفاء أبيها اتجاهها، ربما لأن والدتها توفيت عقب ولادتها، وهي تعلم أن والدها كان يحبها بعمق..

لكنه ظلم أن يحملها مسؤولية وفاتها، وهي مجرد طفلة لا حول لها ولا قوة، كل جرمها أنها أتت إلى هذه الدنيا المقبضة، فلو كان الأمر بيدها لاختارت الموت على حياتها التعسة الأليمة..

الوحيد الذي نالت من حنانه وحبه الشيء الوفير كان (عنات) ابن عمها (جوري) الذي طلق زوجته لأسباب تافهة وحجج واهية، كان عمها كأبيها، مجرد كائن قذر يستحق الموت!

أخبرها (عنات) عن نقمة أبيه عليه دائماً، وكيف يفضل (جيرشون) عليه، لقد أتى (عنات) من عالم مواز لعالمها الكريه، عالم يفضل فيه الأب الظالم أحد ولديه على الآخر دون سبب مقنع..

أخبرها عن الضرب المستمر والإهانات المتواصلة، كان يضربه دوما، ويشتمه دوما، جعل حياته جحيماً لا يطاق، وفكرة الحياة أصبحت منفرة لأقصى الحدود..

تذكرت يوم دخلت عليه في أحد الأيام لتجده شبه عار في الحمام، وقد عكف ـ في محاولات خرقاء ـ على جرح معصمه من الرسغ للوصول إلى شرايينه كي يقطعها في مياه الحوض الممتلئ عن آخره..

وعندما أمسكت بيده من دون أن تنطق بكلمة واحدة، سقطت منه شفرة الحلاقة، وانفجر في بكاء تنفطر له القلوب!

منذ تلك اللحظة صار عالميهما واحداً، وأقسما على أن يكون مصيراهما مشتركاً للأزل.. استحكم الحنان نطاق قلبها، فقد كان (عنات) رقيقا ومرهفاً لدرجة تناسبها، فهي لا تطيق الذكر المتحكم بأي شكل وبأية صورة.. الأفضل بالنسبة لها ـ أن يكون معدوم الحيلة تماما! لا مزيد من الضرب والذكورة القمعية الغاشمة، إن فتاها مناسب تماما لها، فهو بحاجة لها أكثر مما هي بحاجة إليه!

أفعمت الخواطر المتضاربة رأسها حتى أثقلته وهي سائرة بخطى حثيثةٍ إلى دارها، لم ولن تكون جزعةً على أبيها كما تظاهرت أمام (عنات) و(جيرشون) الذي يحب عمه كثيرا، ويتخذه مثلا يحتذى به لأن لهما ذات سوء الطباع.. إنه ولده الذي لم ينجبه، كما أنه راض تماماً عن العلاقة التي تجمع بينه وبين (أورلي)..

إن موضوع كراهية (أورلي) لجيرشون الذي استجد فجأة قد أثار سرورها وغبطتها، فالزوبعة الهائجة ستعصف حين يعلم الأب بالأمر، وسيعلم قريبا لأن (أورلي) لا تخف أمراً، ربما عقب شفاء الأب وعودة الأمور إلى طبيعتها..

وبطريقة راضية همست لنفسها:

ـ زه موتسي حن بعيناي! (هذا يعجبني)

وقبل بلوغها باب دارها بقليل، فوجئت بكف خشنة تطبق على فمها فتكتمه تماما.. انتابها ذعر مروع لما شعرت بيدها تلوى خلف ظهرها بعنف مؤلم، واشتد ذعرها حين عجزت عن الصراخ!

ـ "إياك والنطق بحرف وإلا ذبحتك ككبش عيد الأضحى!"

شعرت بزجاجة مكسورة تداعب نحرها بأطرافها الحادة، ولم تفهم حرفاً مما قيل، لكنها خمنت التهديد في نبرة صوته..

خمنت كذلك بأنه فتى يكبرها بعدة سنين، وبأنه فلسطيني طبعاً ما دامت لم تفهم ما قاله..

وآخر ما خمنته أن الفتى غاضب، وغضبه سيجعله يذبحها عند أول بادرة منها بالصراخ أو محاولة الهرب!



حكاية جوري

القطار الكئيب أسود اللون صدئ الهيكل يرتفع للسماء ببطء..

تلفت (يزن) حوله بدهشة وخوف، فوجد عدداً هائلاً من الناس جالسين على المقاعد.. كانت وجوههم شاحبة حزينة، ليس شحوباً عادياً بل شحوب الجثث التي هلك أصحابها!

نظر من خلال النافذة، فوجد الأرض تبتعد والسماء تقترب، فهمس لنفسه:

ـ إذن فقد مت أخيراً.. مرحى!

تأمل وجوه الجالسين من حوله، فرأى ركاباً من الجنسين ومن مختلف الأعمار ملطخين بالدماء من جراء طلقات أصابتهم في الصدغ والصدر والمعدة،

بعضهم يتدفق دمه غزيرا من أوردة الأعناق، في حين لم يتمكن من تمييز البعض الآخر بسبب تحولهم إلى أشلاء يصعب تخيل أنها كانت بشراً من قبل..

ـ "هؤلاء ضحايا القصف.."

نظر (يزن) أمامه، فوجد شخصا جالسا يقول له دون إدارة رأسه:

ـ "وعلى اليمين أولئك الذين استشهدوا في المذابح، أما عن هذا الصف فهو للذين استشهدوا بالرصاص أثناء العمليات الفدائية.."

والتفت إلى (يزن) باسما..

نظر له الأخير بصمت طويل، قبل أن يقطعه بصوت متهدج:

ـ (منذر)؟!

ـ "كيف حالك يا صديقي؟"

دمعت عينا (يزن) وهو يرد مجيبا:

ـ اشتقت إليك كثيرا..

ـ "وأنا أيضاً.."

ـ لكن ما الذي أتى بي إلى هنا؟ هل مت بطلقة رصاص؟

ـ "لا، وتلك هي المشكلة!"

ـ ماذا تقصد؟

ـ "ليس من المفترض أن تكون هنا يا صديقي!"

وتبدى عليه أسى شديد قبل أن يعيد وجهه ورأسه للأمام مسترخيا بمقعده!

ـ "ماذا تقصد يا (منذر)؟!"

وهنا بلغ مسامعه صوت يقول بأسلوب مخيف:

ـ أنت! ليس من المفترض أن تكون هنا!

نظر برعب للوراء، فوجد آخر من تمنى رؤيته في تلك اللحظة.. كان حوذي عربة الموت!

نهض من مكانه بسرعة، في حين اقترب منه الحوذي بخطواتٍ متعجلة قائلاً باستهزاء:

ـ تريد الصعود بهذه السرعة؟ ألا تعلم بأنك خاطئ كبير مكانه ليس بين هؤلاء؟

شعر (يزن) برعب عارم من كلامه، فهتف مستنجداً بصاحبه:

ـ الغوث يا (منذر)!

لكن (منذر) تجاهله تماما، فهتف (يزن) متراجعاً للوراء بفزع:

ـ ماذا ستفعل بي؟

ـ سآخذك للسماء طبعاً، ولكن ليس مع هؤلاء..

ـ ابتعد عني!

ـ لن أبتعد عن خاطئ واحد! أنت ملكي!

صرخ (يزن) وشعر رأسه يتصلب:

ـ إليك عني وإلا..

ـ وإلا ماذا أيها التعس؟

فجأة، انضم صوت ثالث لهما، كانت نبرته قوية وصارمة لحد كبير..

ـ "ابتعد عنه!"

نظرا معاً إلى مصدره، فوقع بصر (يزن) على (فاتك النمر) بشحمه ولحمه!

كانت الدماء متدفقة بغزارة من ثلاثة جروح عميقة مزقت لحم وجهه، لكنه لم يبد اكتراثاً لذلك!

ـ "(فاتك)! حمدا لله!"

وقال الحوذي بوحشية:

ـ لا تتدخل أنت وإلا..

ـ وإلا ماذا؟

وتقدم ببطء دون أدنى خوف، فما ان تجاوز (يزن) حتى همس دون أن ينظر له:

ـ اقفز من هذا القطار حالاً!

ـ ماذا؟

ـ بسرعة!!

وانقض على الحوذي الذي صرخ:

ـ يا لك من مجنون!!

اشتبكا في صراع عنيف وصوت (فاتك) يرتفع أثناء ذلك:

ـ اقفز!!

كانت هنالك نافذة مفتوحة بالقرب من (يزن).. تردد كثيراً في تنفيذ أمر (فاتك)، لكنه في النهاية وثب منها مطلقا أعتى صرخة!

رآها بعين الخيال كأطلال مهجورة هلك قاطنوها بسبب الطاعون أو التيفوس..

ـ "(يزن)!"

انتفض قليلاً قبل معاودته الرؤية.. الآن يراها كما هي على حقيقتها.. مستوطنة يهودية!

استدار لحيث يجلس (نصار)، فوجده يخلط بحنكة ورق "كوتشينة" مهترىء كان بحوزته..

- "تعال والعب معي.."

نظر (يزن) له بضياع التائه.. ثم لم يلبث أن انتفض وكأنه يعيد خواطره وأفكاره إلى أرض الواقع، قبل أن يغمغم بوجوم:

- لا أعرف كيف ألعب بها، كما أنه لا رغبة لدي..

وجلس مردفا بغم:

- لماذا تبدو المستوطنة الملعونة وكأنها مهجورة؟

- طبيعي بالنسبة لقوم كاليهود الأوباش، فهم منغلقين في منازلهم وكأنهم يعكفون على تدبير المصائب وحبك المؤامرات!

- لا تبدو قلقاً كثيراً..

- الترقب على طريقتك يصيب المرء بالجنون..

- أشعر بألم في معدتي..

- قل يا رحمن يا رحيم واصنع شيئا آخر غير التهام أظافرك!

عضّ الفتى أنامله وهو ينهض متجها صوب الجهة المطلة على المستوطنة من جديد..

ـ "إنهم أحياء!"

ردّ (نصار) وهو يواصل خلط أوراق اللعب:

ـ أنا متأكد من ذلك..

ـ لقد عادوا! أرى (نصر) قادماً!

نهض (نصار) وأسرع متلهفا ليقف بجوار (يزن)، ومن ثم غمغم بقلق:

ـ رباه! إنه لوحده..

ـ ليس لوحده!

أخيراً وصل (نصر) ومعه فتاة مرتعبة! فسأل (نصار) (يزن):

ـ أهذه هي فتاتك؟

ـ كلا.. أين (فاتك) و(الديب)؟!ومن هذه بحق الله؟!

توقف (نصر) قبل بلوغهما تماماً وقد شرع باللهاث المتواصل، فهبط (نصار) لمعاونته صائحاً بصوت متهدج:

ـ مرحباً بعودتك!

بدا متعكر المزاج بشدة، ودفع بأسيرته أمامه بعنف صائحاً:

ـ تحركي!

أطلقت الفتاة كلمات بطريقة عنيفة، فعاود (نصر) دفعها..

ـ "كفي عن الشتم يا لعينة وتحركي.."

ـ "من هذه يا (نصر)؟"

ـ "فيما بعد.."

ـ "وأين (فاتك)؟ أين (الديب) يا (نصر)؟"

ـ "قلت فيما بعد!"

عاونهما (نصار) على الصعود مطبقاً فمه على أسئلته العديدة، وبحرارة رحب (يزن) بعودة (نصر) الذي تجاهله متجهاً إلى حيث المتاع، فانتزع منه قنينة الماء

وشرب منها بنهم، ثم سكب ما تبقى على رأسه وكأنه آت من سباق عنيف..

أما عن الفتاة فلقد صمتت متأملة المكان ووجوه الثلاثة بخوف وتربص..

أخيراً ــ ورحمة بأعصابهم ــ نطق (نصر) من دون النظر إليهما فقال:

ـ اليهود ظفروا بهما!

ـ يا إلهي الرحيم!

ـ ولست استبعد قيامهم بذبحهما!

ـ ومن هذه؟ إنها يهودية أليس كذلك؟

ــ أخذتها كرهينة، لربما تمكنا من الضغط على ذويها كي يطلقوا سراح (فاتك) و(الديب).. ولربما فتاتنا أيضاً!

ـ ونعم التفكير!

هرش (نصر) شعره المبلل، ثم وجه سبابة صارمة إلى صدر شقيقه..

ـ "(نصار)، إسمعني جيدا.. هل تنصت؟"

أجابّ الفتى الضخم في رهبة:

ـ طبعا!

ـ عظيم.. سأعود إلى المستوطنة!

ـ ذلك ضرب من ضروب الجنون يا أخي!

ـ سمّه ما شئت.. احرس الفتاة جيدا فهي رهينة، هل فهمت؟

ـ وإذا لم تعد؟ ماذا أصنع بها؟

نظر إليها ثم إلى (يزن)، وتذكر أنه أشرف من الذين يواجهونهم..

عاود تأملها قائلاً لشقيقه بصرامة وهو يزفر:

ـ سأعود.. بإذن الله سأفعل!

وانطلق، فهبط مجددا وبسرعة دون أن يتوقف..

وعندما استقر على الأرض انطلق يجري نحو المستوطنة كالفهد، كان نشاطه هائلاً وسرعته في تزايد، لم يفكر بنيل قسط من الراحة فوق، بل آثر عدم إضاعة لحظة من الوقت..

إنهم الآن بحاجة ماسة إلى معجزة لتحرير (فاتك) و(الديب) والفتاة أيضاً.. لهث وهو يركض بسبب

السجائر التي أنهكت صدره، لكنه لم يتوقف أبداً عن الجري..

دخل المستوطنة بلا حذر، وظل يركض حتى لمح سيارة تاجر (بيسان) الزرقاء، فتوقف أخيراً ليلصق ظهره بأحد الجدران، ثم لهث محاولاً التقاط أنفاسه التي لا تكاد تهدأ من فرط تلاحقها..

فما أن استعاد قدرته الطبيعية على التنفس حتى وثب ليعتلي الجدار، أخفق بادئ الأمر، لكن إصراره مكنه من النجاح في المرة الرابعة، ومن فوق الجدار وثب للجهة المقابلة..

كان الآن في ذات المنزل الذي صعد فوق سقفه ليراقب الأوضاع منه، وقد قرر هذه المرة تفحصه.. لم تكن لديه خطة ما، كان يرتجل فحسب! ورغم ذلك لم يشعر بأي خوف إلا على رفيقيه..

سمع أصواتاً محتدة تصدر من الداخل، وأبصر نافذة مضاءة، فكأنها مناوشات حادة تجري بالداخل، وشعر بغيظ عارم، فالأصوات مسموعة لكنها بالعبرية..

لمح فرجة ضيقة بين الستائر لإحدى النوافذ، تقدم ونظر، فأبصر من خلالها فتى صارخا بذعر واضح،

وآخر يصرخ بطريقة محتدة، كما لو كانا يتشاجران بشأن أمر ما..

ـ "لماذا لا يتوجب علينا إبلاغ الشرطة؟"

ـ "إنها أوامر والدها نفسه!"

وتذكر (عنات) قصص (حنا) عن أبيها الغاشم الذي يكرهها..

ـ "خرجت من هنا أمامنا إلى منزلها ولم يرها أحد هناك، فأين تراها اختفت؟"

ـ "لا أعلم، إنني ملزم بتنفيذ أوامر عمي، لا شرطة!"

الآن فقط صدّق كل تلك القصص بعدما كان مترددا بشأنها.. إن عمه الوغد يبدو مرتاحاً لخلاصه من ابنته!

شعر بغيظ عنيف دفعه لأن يصرخ:

ـ لو أنها (أورلي) لضربت بأوامر عمك عرض الحائط..

ـ إياك أن تنطق باسمها!

ويبدو وأن الحب يصنع المعجزات، فقد ردّ (عنات) بصرامة ولأول مرة في حياته:

ـ ماذا ستفعل؟ هل ستضربني؟

ـ وأكسر عنقك!

ـ اذهب إلى الجحيم!

ـ "(عنات)!!"

دوى الصوت كالزئير، فانلجم لسان (عنات) على الفور، فجيرشون أرحم بكثير من والده..

وتقدم (جوري) الذي يشبه شقيقه كثيرا، وإن بدا أنحف منه بقليل.. نظر لعنات نظرات جعلت أوصاله تهتز، ثم قال له من بين أسنانه المصفرة:

ـ اقترب أيها الفاشل!

تلك كانت الإدانة المباشرة له ككل مرة، وكره النظر في وجه أخيه كي لا يلمح بسمته المتشفية..

فما ان صار على قيد أنملة من والده حتى بوغت بصفعة ماحقة هوت على خدّه الأيسر!

وصرخ (جوري) في وجهه بغلظة:

ـ إياك ومحادثة شقيقك الأكبر هكذا مجدداً وإلا طردتك شرّ طردة من المنزل، أسمعتني يا حشرة؟!

كان من المعتاد أن يشتم ويضرب، لكن خيّل لعنات أن هذه المرة أقسى من كل مرة..

برفق ردّ على والده المشتعل غضباً:

ـ إذن.. أفضل الطرد!

ـ وإياك والعودة إلى هنا يا حشرة!

ـ اطمئن..

وبلا متاع أو كلمات خرج.. كما هو، بإفلاسه وثيابه الخفيفة رغم برودة الجو..

لم يلمح (نصر) لمسارعة الأخير بالاختباء، كما أن الدموع المترقرقة في مقلتيه منعته من إبصار شيء..

وعقب رحيله عاود (نصر) الاقتراب والتلصص من خلال الفرجة، وقد أثار ما حدث دهشته واهتمامه معاً..

رأى الأب يجلس على مقعد مريح ويحادث ابنه، فتفكر هنيهة قبيل إنصاته لصوت عقله الذي نصحه

بالتوجه للمنزل الآخر الأكثر خطورة! وهكذا ترك النافذة والمكان بأسره متوجهاً إليه..

وداخل المنزل الذي ترك أرضه، كان (جيرشون) يضع يده على كتف أبيه القائل بوجوم:

ـ إن ما نقوم به هنا لأمر خطير وهام يا بني، يستحيل أن نجعله يتسرب للخارج.. أنت رجل، لست كشقيقك الخانع الشبيه بالفتيات، إنك جندي يا بني..

انتفخت أوداج الفتى لسماع ثناء والده عليه، وقال:

ـ أنت تعلم أن بإمكانك الاعتماد علي.. بأي شيء وكل شيء يا أبتي!

تبسم الرجل في حبور، وبارتياح قال:

ـ كلامك يريحني ويسعدني لو أنك تعلم! اليوم أعجبتني شجاعتك في التصدي للصّين اللذين أمسكناهما.. يجب الانتباه الآن لما هو أخطر يا بني، معاركنا مع العرب لا تزال دائرة، وعلينا القيام بدورنا في المعركة كجنود بواسل..

وتبسم (جوري) بسمة غريبة وهو يقول لابنه بترو:

ـ العرب أعداء طبيعيون لنا، وفي ديانتهم نحن قوم نستحق اللعن والاحتقار والقتل..

ـ لذا يجب علينا اعتبارهم حيوانات عجماء مجهزة للذبح!

تبسم (جوري) بسمته الغريبة مرة أخرى، ثم نهض متجها للخزانة، وفتحها ليتناول منها زجاجة نبيذ من صنف فاخر قائلاً:

ـ بإمكاني الآن فقط ـ وبقلب مطمئن ـ إخبارك عن سبب قيامنا بخطف تلك الفتاة العربية!



حكاية بيرح العجوز

- "هل أنت بخير؟"

فكر (فاتك) بأن يظل صامتا، لكن لرفيقه الحق بسماع رد..

- "أجل.."

- "حمداً لله! هل لك أن تخبرني الآن؟"

- "أخبرك عن ماذا؟"

- "عما إذا كنا سنموت.."

- "علم ذلك عند ربي.."

- "يا له من تفاؤل!"

تنهد (فاتك) وهو يزيح رأسه المثقلة باتجاه (الديب).. لم يتمكن من رؤيته بوضوح بسبب الظلام وعينه اليسرى المتورمة، لكنه تبين حدود وجهه، فقال مخاطباً تلك الملامح المشوشة من مجال بصره:

ـ يجب أن نهرب!

همس (الديب) متهكما وبصعوبة لأن حلقه جفّ تماما:

ـ حقا؟!

ـ كان من الممكن ألا نكون داخل موقف كهذا لولا رعونة تدخلك..

تجاهل (الديب) كلامه هامساً:

ـ أشعر بنهايتنا قد باتت وشيكة.. رباه! أهي الجنة أم النار؟

ـ إياك والتفكير في هذا! فكر في وسيلة للخروج من هنا..

لكن (الديب) شرع يغني المواويل متجاهلا كلام (فاتك)، فشعر الأخير أن صاحبه قد فقد عقله..

- "أنا بحاجة لسيجارة!"

- "قبل برهة كنت تفكر بالجنة والنار!"

- "والآن أفكر بسيجارة، أليس هذا ما طلبته مني؟ عدم التفكير في الموت؟"

- "لأن هذا ليس وقت التفكير به.."

- "أكره الموت قبل كسب معركتنا ضد أولئك السفلة الأوباش.."

- "تفكير موفق! والآن أخبرني عما وجدته في المنزل المجاور.."

تنهد (الديب) قبل أن يقول:

- لم أفتشه البتة، كنت أراقبك..

- ونعم المراقبة!

وزأر(فاتك) كغضنفر جريح، فهمس (الديب):

ـ هل أنت غاضب مني؟ أكره رؤيتك غاضباً لأنه لا يجعلك سريع البديهة كما يبدو!

كاد (فاتك) يقهقه لما قاله (الديب)، لولا صوت المفتاح الذي سمعاه يعاود ولوجه في فتحة القفل.. وببطء مزعج للغاية فتح الباب ليظهر ثلاثة رجال وراءه..

ـ "تفضل يا صاحب القداسة!"

وتقدم الذي يتوسطهما، يبدو وأن لديه مشكلة في ظهره.. وحين أضاء الرجل الثاني ــ وكان التاجر الأصلع ــ المصباح المتدلي من السقف بأن جذب سلسلته لأسفل، تبين لهما وجه عجوز منفر الخلقة لأبعد حد يمكن تصوره..

حقا هو منفر! عيناه تحملان طابعا اللؤم والمكر معاً! وكان يبتسم ابتسامة تظهر بضعة أسنان سوداء كالفحم.. دنا منهما مرددا بصوت ضاحك خبيث:

ـ يافيه يافيه! (جميل جميل)

ثم التفت للرجلين اللذين يصحبانه قائلا لهما:

ـ أهذان هما اللصان؟

ـ أجل يا صاحب القداسة..

ـ اللصان اليهوديان؟

تبادلا نظرات الحيرة قبل أن يقول الأصلع:

ـ أجل يا صاحب القداسة، ماذا تقصد بكلامك؟

ـ بالنسبة لأحمق مثلك لا أستغرب الأمر، ولكن (عميحاي)..

ونظر إلى الرجل الثالث، كان مضمد اليد، اليد التي مزقها نصل سكين (فاتك)..

تساءل الرجل ببرودة متأملا وجه (فاتك):

ـ ماذا تقصد يا صاحب القداسة؟

ـ يا بني هذان عربيان أصيلان كالخيول!

ـ لكن هذا الفتى أمامك تحدث العبرية بأفضل مني ومنك..

ـ ربما، لكنه فلسطيني كما رفيقه، أتظن الحيلة انعدمت من الفلسطينيين؟ سيفعلون أي شيء وكل شيء للنيل منا يا بني، ومن أبسط ما يمكن فعله تعلم لغتنا!

بدا (عميحاي) غاضبا ثائرا، وبكل قوته صفع وجه (فاتك) كأنما ينتقم منه لمحاولته خداعه، في حين أخذ المشعوذ العجوز يتأملهما بنظرات متمعنة، قبل مد يده وتلمس وجنتاهما وضغطها، وتأمل صفوف الأسنان وحدقات الأعين!

ـ "توف! (جيد)!"

قال (فاتك) بإنهاك:

ـ إنه يتفحصنا ككبشين قبل الذبح!

ـ كيف ذلك؟ ألن يسلموننا للشرطة؟

ـ لقد كشفوا أمرنا!

ـ إذن فذلك ما سيصنعونه بنا.. سيذبحوننا!

اقترب (عميحاي) من (فاتك) قائلا له:

ـ يا لك من جرذ صغير قذر! تحاول خداعي أنا؟!

ـ لا تنكر أنني فعلت!

لكمه في أنفه لكمة فجرت الدماء من منخريه، ثم قال له وهو يبصق في عينه المتورمة:

ـ إذن فلتكن الخدعة الأخيرة في عمرك..

ـ ماذا ستفعلون بنا؟

ـ ما نشاء فعله!

تمتم (الديب) بصوت ضعيف:

ـ اسأله.. اسأله عن الفتاة..

ـ لماذا خطفتم الفتاة المسيحية؟

قال التاجر الأصلع وهو يتأمل (فاتك) بدهشة عارمة:

ـ ولكن كيف عرفت بأمر الفتاة؟!

ابتسم (عميحاي) وهو يتحسس يده المضمدة قائلاً:

ـ لا يهم، لا تقلق على فتاتك، فمصيرها سيكون كمصيركما تماماً!

أسرع (فاتك) يقول وهو يطرف بعين واحدة بسرعة:

ـ ماذا تعني؟

أجاب العجوز بتساؤل وهو يدنو منه:

ـ ألم تسمع بالبوريم يا فتى؟

اتسعت عين (فاتك) السليمة بشدة وهو يقول:

ـ أنتم لن تصنعوا بنا هذا!

ـ إن يوم غد يصادف الرابع عشر من مارس، وأنتم ـ لسوء حظكم ـ معنا!

ـ وحوش!!

تبادلوا قهقهات ساخرة وهم يخرجون من القبو..

لم يلحق (عميحاي) بالعجوز والتاجر الأصلع، تسمر بمكانه، ومن ثم اقترب من (فاتك) مخرجا من جيبه شفرة حلاقة!

هتف به (الديب) محتداً:

ـ ماذا ستفعل به؟

تجاهله (عميحاي) مقرباً نصل الشفرة من وجه (فاتك)..

ـ "أريدك أن تعدني بشيء.."

وأعقب قوله بأن مرر الشفرة الماضية على وجه الفتى بكل خسة وقسوة.. فسال الدم بغزارة!

ـ "عدني أن تقاوم كثيراً قبل أن تصرخ!"

ولهث كأنما هيجته رؤية الدماء، ومن ثم تنفس بعمق قبل أن يطفئ ضوء المصباح ويخرج موصداً الباب بإحكام وراءه..

ـ "جبناء!!"

كذا صرخ (الديب) بغضب عارم، وشرع يدق رأسه للخلف على الجدار بطريقة مجنونة وكأنه يحاول قتل نفسه، قبل أن تخور قواه ويهدأ أخيراً..

سمع صوت (فاتك) يقول له بتهالك:

ـ العجوز اللعين!

ـ هل أنت بخير يا (فاتك)؟

ـ دعك مني وأنصت.. ذلك العجوز الذي أتى معهما..

ـ ما باله خيال المآتة الملعون؟

ـ إنه حاخام استقدموه لتنفيذ طقوس سرية لعينة بنا!

ـ ماذا؟

ـ هو وعصابته اختطفوا الفتاة لاستنزاف دمها وفقاً لطقوس عيد "البوريم"!

ـ ماذا؟!

ـ هو عيد يحتفلون فيه بخلاص شعبهم من الخطة التي دبرها (هامان) للخلاص منهم، فأنقذتهم عاهرة من عاهراتهم تدعى (استر)..

ـ ما هذا الهراء الذي تقوله؟

ـ لقد ورد ذلك في سفر (استر)، و"البوريم" أو"القرع" أو"وصمة الدم" عيد لا يقوم به سوى اليهود المتدينين، وفيه يستنزفون دماء أطفال غير اليهود، فيمزجونها بالزعفران، ويخلطون المزيج مع عجين الفطير الذي يأكلونه في عيدهم الرهيب!

ـ يا لك من مبالغ! هل تقول لي أن اليهود يأكلون في أحد أعيادهم فطيراً يمزجونه بدمائنا؟!

ـ أجل، هذا ما أخبرني والدي به..

ـ إذن فوالدك يبالغ!

وبعد لحظة صمت أطلق (الديب) ضحكة من أعماق قلبه قبل أن يهتف:

ـ ما هذه الأفلام المرعبة؟ أعني أن اليهود حيوانات نهمة للدم بطبيعة الحال.. ولكن لدرجة التهامه مع فطيرة حلوى؟!

أين جدتي لتسمع هذا؟ إنها حكاية مرعبة! يمزجون دماءنا بفطير يعدونه للعيد؟ مثل كعك العيد عندنا؟!

وصرخ ثائراً:

ـ أتمنى لو كانت دمائي سماً زعافاً!

ولهث بشدة.. عرقه كان يغمره تماماً، وحاله بدت غير مطمئنة بالمرة، ولاحظ (فاتك) ذلك فبصره اعتاد الظلمة، كان ما رآه مثيرا للتوجس، فسأل صاحبه بقلق:

ـ ما بالك؟ توشك على الموت منذ الآن!

ـ ماذا تقول؟

ـ تبدو مريضاً جداً..

ارتجف الفتى، وقال وعرقه يتساقط أرضاً كصنبور ماء شبه مفتوح:

ـ إنه داء نقص السكر..

ـ أنت مصاب به؟ لماذا لم تقل؟ وكيف ذلك؟

ـ صدمة الخوف..

ـ ماذا قلت؟

ـ تعرضت لصدمة خوف أثقلتني بالمرض اللعين!

ـ (الديب) قاهر الذئب الأشهب تعرض لصدمة خوف؟

ضحك (الديب) ملء شدقيه قائلاً بمكر متهالك:

ـ حتى أنت صدقت؟ يا الله ما أسهل أن يكذب المرء على الناس!

متى خلق فتى صغير السن يستطيع مصارعة ذئب جبلي شرس؟ لقد كدت ابلل سروالي حين هاجمني الوغد! كاد أن يفترسني لولا وصول الرعاة في الوقت المناسب لنجدتي!

ـ ولكن..

ـــ لا تلاكـن! مختـصر القـصة أنـني مجـرد جبـان كذاب.. انتهينا!

لم يتمكن (فاتك) من درء بسمته وهو يرد:

ـ لكنك صمدت حتى مقدم الرعاة لنجدتك..

ـ اذهب للجحيم! أتحاول مواساتي؟

ـ نحن معاً في الجحيم!

ـ يـا لـك مـن أحمـق! بعـد قليـل سـيأتون لاسـتنزاف دمائنا وأنت هنا تمازحني؟

ـ طريقة ممتازة لتسجية الوقت! ما قولك بأن أخبر الرفاق عما قصصته لي توا؟

ـ أقسم أن أقتلك لو فعلتها!

ـ لا تخف، فسرك في بئر عميق معي..

ـ إنني منهك، سأنام لأني منهك..

قال (فاتك) بشفقة عميقة هذه المرة:

ـ نم يا صديقي..

ـ سأصب لعنتي عليك إن أتوا وأخذوني وأنا نائم، أيقظني قبل حدوث ذلك..

وأغلق الفتى المعتل جفناه، وهمس لنفسه بصوت يمكن سماعه:

ـ آه لو أن بإمكاني تناول طبق أخير من الكنافة!

ونام الفتى ـ أو غاب عن وعيه ـ فأطلق (فاتك) تنهيدة.. سيستنزف اليهود دمه ودم (الديب) والفتاة (أوديت) إذن..

سيقومون بتعذيبهم قبل ذلك حسب طقوس "البوريم"..

وسيموت (الديب) بداء السكري إذا بقوا على هذه الحال..

يجب الخروج من هنا بأية وسيلة، والتفكير في كل تلك المصائب المتوالية يكاد يصيبه بالجنون..

حكاية روث ورخبي

تساءلت (أورلي) وقد دفنت وجهها في أحضان السيدة (روث)، وعيناها مغمضتان منهكتان لكثرة ما سال منهما من دمع:

ـ هل نحن قساة دودا؟

ـ من الوغد الذي قال لك هذا؟

ـ هل نهوى إراقة الدماء؟ أحقاً نحن قتلة أنبياء دودا؟

ـ إن من قال لك ذلك مجرد مجنون..

ـ وهذه الأرض؟ أحقاً هي ليست ملكا لأجدادنا دودا؟

زمّت المرأة شفتيها الباهتتين باستياء تام، مصوبة نظراتها نحو زوجها المكتنز العاكف على شرب الخمرة بنهم..

ـ "والمذابح و.."

ـ "هي حرب مقدسة لاستعادة أراضينا ممن اغتصبوها منا.."

وهنا رفع الزوج زجاجة الخمرة عالياً وصاح:

ـ نخب استعادة الأراضي المغتصبة!

قالت (روث) ووجهها القبيح يظهر القرف والتقزز:

ـ ألن تكف عن السكر كل ليلة أيها العجوز؟ ألا ترى بأنك تفزع الطفلة بترهاتك؟

ـ اذهبي إلى الشيطان أيتها اللعينة ودعيني لسكري!

شهقت (روث) مستنكرة، فنهضت قائلة لأورلي بغضب شديد:

- تعالي يا صغيرتي إلى فراشك، إن عمك (رخبي) يعاني مرضاً خبيثاً في لسانه!

تعالي فقد أنهكتك كثرة البكاء على والدك المسكين..

واقتادتها لإحدى الغرف في ذات اللحظة التي دخل بها الرجال الثلاثة المكان..

تبدى اشمئزاز تام على وجه الحاخام (بيرح) لما وقع بصره على (رخبي)، الذي أخذ يغني بلا تحفظ في عالم آخر!

- "ما الذي يصنعه هذا الضال هنا؟"

ردّ (عميحاي) ببرودة:

- زوجته امرأة متدينة، وهي ترغب في خلاص زوجها من خطاياه كلها..

صرخ (رخبي) وقد احتقن وجهه من شدة الاحمرار:

- كلنا في الجحيم.. كلنا!

- اصمت!

- اصمت أنت!

اغتاظ (بيرح) العجوز من تلك الوقاحة، في حين قال (عميحاي) محاولاً تهدئة الجو:

ـ كفاك ما شربته أيها العزيز (رخبي)..

ـ (عميحاي) يا قاتل الأطفال الشجاع!

وحمل الرجل زجاجته ليسرع نحو زميله القديم وجاره الحالي قائلاً:

ـ لنشرب نخب الأطفال الذين ذبحناهم في (دير ياسين) وغيرها من القرى، فما قولك يا صديقي؟

بقي (عميحاي) واقفاً رصيناً، في حين استرسل (رخبي) مشيراً بأحد أصابعه الممسكة بزجاجة الخمرة إلى الرجل:

ـ كنا نلقبه في كتيبتنا بالساطور! معدني وبارد ويسفك الدماء مثله! تلك سمة من يملك الهيبة يا سادة.. هيبة وعظمة وقساوة الموت!

ـ لم لا تكف عن خبلك والشرب؟

ـــ الأب الحنون الذي لم يجد متعته في التدمير أو الاغتصاب والقتل.. حتى قائد وحدتنا (زاكيد ليمان) الحثالة لم يجرؤ على فعل ما كان صديقي التعس هذا يحب فعله! قد كان قائداً متراخياً لا يصلح لقيادة شياطين مثلنا!

إنه أنت! أنت من كان يتوجب عليه قيادة حملتنا على قرى الفلاحين! كنت ستصنع مجدك وتاريخك الخاص بك هناك!

وضحك ضحكة عميقة مطوحا الزجاجة التي فرغت بالكامل من سمومها، ثم وقف بمواجهة (عميحاي) كأنما ينشد التحدي..

هنا صفعه (عميحاي) بقسوة على وجهه الذي ترهل لحمه الرمادي، وقال له بغلظة:

ـــ إنني أستضيفك في منزلي إكراماً لزوجتك والزمالة التي وحدتني مع تافه قذر مثلك.. إنك مجرد برميل فضلات، وستبقى كذلك، فلا تحاول التظاهر بالطهر والنقاء الآن فقط بعد كل تلك الآثام المزعومة!

أما إذا ما كنت تنشد الخلاص فنحن على استعداد لمنحك إياه..

غرق (رخبي) في نوبة من القهقهة قائلا:

ـ أيها الشيطان! تريد تخليصي بجعلي آكل الحلوى بدماء الأطفال؟!

أفضّل أن أصير هندوسيا يغتسل ببول بقرته المقدسة على أن..

شهر (عميحاي) مسدسه في وجه (رخبي)، فصاح الأخير والزبد يطفح من شفتيه الممتلئتين:

ـ لدي ولدان، هل سيصمتان حين يعلمان بمقتل والدهما على يدي جارنا المحبوب (عميحاي)؟

ـ (شافيد) و(يوخفيد) ينتميان إلي بقدر ما ينتميان إليك.. ولربما أكثر!

ـ إنهما ولداي!

ـ كل فتية اليهود في هذه المستوطنة ينتمون إلى (عميحاي)!

ـ سحقاً لك أيها الساطور!

أعاد (عميحاي) سلاحه إلى جرابه، في ذات اللحظة التي خرجت بها (روث) لتهمس للوجوه المتجهمة وهي تهز يدها بعصبية كذيل حية الأجراس:

ـ هل اكتفيتم أخيراً؟ لدي طفلة تحاول النوم..

وصوبت نظرات البومة خاصتها إلى زوجها، فرفع الرجل كفه معلنا الهدنة دون النظر لها..

تأملت وجوههم ثانية، ثم عادت لداخل الغرفة بعدما أوصدت الباب..

قالت (أورلي) دونما اكتراث ودون تحرك جزء من جسمها على الفراش:

ـ فيما يتشاجرون؟

رقدت المرأة بجوارها لتداعب بأناملها ظهر الفتاة العاجي، وهمست برفق وأظافرها الطويلة تتخلل شعرها الأسود الناعم:

ـ الرجال لا يصمتون أبدا، يظنون أحاديثهم عظيمة الأهمية..

ـ لذا أفتقد والدتي..

ـ هي رائعة في الفردوس الآن.. أتقيمين "كوداشيم" على روحها النبيلة؟

ـ كل ليلة دودا..

ـ يلوح لي أنك أغفلت هذه الليلة..

وكادت أن تنهض لولا أن استوقفتها (أورلي).. وقالت وهي تجذبها من كفها:

ـ ابقي قليلا دودا..

ـ لكنك بحاجة للنوم..

ـ ابقي إذن كي أتمكن من النوم..

ـ وهو كذلك يا حبيبتي..

وعـــاودت الاضـــطجاع إلى جوارهـــا، فـــسمعتها تقـــول بوجل:

- لماذا يكرهنا الجميع؟

- لأن الله اصـــطفى شـــعبنا مـــن دون شـــعوب الأرض قاطبة..

- وفيما اصطفاه بالضبط؟

- ليرث الأرض وكل ما عليها..

- حتى غير اليهودي؟

- أجل، إنهم قد خلقوا عبيدا لنا فقط..

- لماذا أشعر بأن كل ذلك سخيف وغير صائب؟

- لأنك مازلت صغيرة..

- لماذا لا يقومون بمهامهم كعبيد لنا؟

- لأن الكراهية والحقد والحسد عششت في قلوبهم..

- لذلك نحاربهم؟

ـ ولذلك سننتصر في النهاية..

وتنهدت قبل أن تقول بنبرة خفيضة حانية:

ـ سأغني لك قليلا حتى تنامي..

ـ افعلي أرجوك، فصوتك جميل..

ـ كنت أصنع ذلك كثيرا في طفولتك فهل تذكرين؟

وبصوت رخيم شرعت تغني أغنية عن طفلة تدعى (أورلي).. تحب اللهو في الفردوس مع الملائكة، وتعشق أزهار البرتقال..

أغمضت الفتاة جفنيها، ثم لم تلبث أن عاودت فتحهما بعد مدة..

لم تكن (روث) راقدة بجوارها.. لهثت قليلا لما تذكرت تفاصيل كابوس رأته فأثار فزعها..

لم تفهم سر الميل اتجاه من كاد يقتل والدها! فهو مجرد كلب بربري من عبيد اليهود، من الحسودين الحقودين الذين فاضت قلوبهم بالكراهية اتجاه أسيادهم..

ـ "لا!"

هتفت كالممسوسة..

غريب ومخيف ذلك العبد! غريب ومخيف لدرجة السحر..

نهضت من الفراش وكلها احتداد وارتعاش.. يجب التخلص من تلك اللعنة التي حلت عليها بأية وسيلة، لقد بات الفتى كالوثن الملعون، لا تجسر على الدنو منه لكنها تعبده رغم مقتها لصورته المخيفة!

تسللت إلى المطبخ حافية القدمين، وسحبت من أحد الأرفف سكينا ذات نصل ماض طويل..

سارت بخطوات لا تكاد تسمع هابطة درجات القبو..

كان مفتاح الباب الصدئ معلقاً على عقافة فولاذية مثبتة في الجدار على طريقة سجون العصور الوسطى، فتناولته وقامت بإدارته داخل القفل حتى تحرر، ثم ولجت المكان نتن الرائحة، فلم تتمكن من رؤية شيء بادئ الأمر.. كما أنها لم تجرؤ على إشعال مصباح السقف..

رويداً رويداً اعتاد بصرها الظلمة، فتبين لها جسدان مقيدان بالأغلال إلى الجدار..

شعرت بالبرد يقرص لها أصابع قدميها وجسدها الذي لا يكاد قميص النوم يستره، لكنها تجاهلت ذلك كله وتقدمت ممررة الطرف غير الحاد من السكين على أصابعها..

ـ "ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

انتفضت شاهقةً، حتى أنها أوقعت السكين أرضاً محدثةً صوت صلصلة.. أفزعها اللعين بشدة فقد حسبته فاقد الوعي!

ـ "آه! جئت لقتلي إذن!"

ردّت بصوت خفيض:

ـ ولن يمنعني أحد!

وانحنت لالتقاط السكين وهي لا تكاد تبعد ناظريها عنه، وكأنها تخشى بأن يتحرر من قيوده وينقض عليها..

قالت وهي تعتدل واقفة وتقترب منه بيد مرتعدة بالسكين حتى ألصقت النصل بصدره:

ـ اتل صلاتك الأخيرة أيها العبد!

ـ كما سيصنع أهلك عندما أفرغ منهم؟

ـ اخرس!

وانتزعت السكين من صدره قبل صفعه على وجهه بكل ما أوتيت من قوة، ثم وضعت النصل على عنقه قائلة بمقت:

ـ ينبغي حش هذه الرقبة اللعينة!

ـ وأنت من سيحشها أيتها الطفلة الغريرة؟

ـ يبدو وأنك تود الخلاص من لسانك أيضاً..

ـ إذن اثبتي لي رباطة جأشك واقطعيه لي!

كادت تفقد أعصابها وتذبحه أخيراً حين أخرج لها لسانه بطريقة مستفزة وشقية! فقالت له كاظمة غيظها بعسر:

ـ يا لك من..

ـ من ماذا؟ لقد استنفدت قاموس الشتائم كله..

ـ عليك بأن.. بأن تخجل من نفسك!

في هذه المرة ردّ بدهشة حقيقية:

ـ ماذا؟

ـ أنت قد سمعتني!

ـ هل الأمر متعلق بالتهذيب وحسن السلوك؟ لم أكن أعلم ذلك أبداً!

قالها بسخرية جامحة، فصفعته على وجهه هامسة بخشونة:

ـ وكيف لمتخلف من الهمج أن يعلم؟

ـ أرجو المعذرة!

وأطلق ضحكة صاخبة أثارت حنقها بشدة، وبغيظ مكبوت قالت له:

ـ أتريدهم أن يأتوا لتأديبك؟

ـ أراك خائفة علي!

ـ أنا خائفة على نفسي..

ـ ألا تخافين علي؟

بدت مندهشة هذه المرة، وبارتباك قالت:

ـ ماذا؟

أطلق ضحكة لم تتبين ماهيتها، فقالت مغتاظة:

ـ أتسخر مني؟

ـ بل من الحال التي وقعت بها..

ـ عما تتكلم ؟

صمت رافعا وجهه للسقف، فسألته:

ـ ألديك فكرة عما سيصنعونه بك وبرفيقك؟

ـ بإمكانك قول ذلك!

وتنهد قبل قوله:

ـ هل لي بطلب شيء منك؟

أصابتها الدهشة العارمة مجددا، فبقيت صامتة هذه المرة..

ـ "أريدك أن تفكي أسر صاحبي هذا!"

هتفت بعد الصمت الطويل:

ـ هل جننت؟

قال لها بصرامة:

ـ انظري إلى حاله، إنه مصاب بغيبوبة داء السكري، وإذا لم يتم إنقاذه فسيهلك!

ـ أهذا كل ما في الأمر؟ سأطلب من والدي نقله للمستوصف..

ـ أنت لا تفهمين، والدك سيقتلني وصاحبي في كل الأحوال!

ـ يقتلكما؟! نحن لسنا بمجرمين أسمعت؟ وسنسلمكما للشرطة كي تتولى أمركما..

ـ وأنا أقول لك أن والدك سيقتلنا، وأتمنى منك النظر لحاله بعين الرأفة والعطف..

ـ وكيف تضمن لي أنه مريض؟ ربما كانت هذه حيلة منكما، فأفك أسره ليفيق ويحتجزني قبل فكه أسرك!

خيل لها أن بصره مسلط كالكشاف عليها، فارتبكت..

سمعته يقول بتؤدة:

ـ أشعلي المصباح رجاء..

ـ أنا لا أريد..

ـ وأنا أود رؤية وجهك عن كثب..

بدت مترددة لأقصى حد، لكنها رضخت في النهاية..

ولكن ما ان قامت بإشعاله حتى أطلقت شهقة رعب خالصة، فقد وقع بصرها على وجه مغطى بالدماء، شوهته ثلاث ندب مائلة!

غطت فمها بكفيها، ومن ثم خفضتهما متسائلة بهلع:

ـ لا بد وأنه ابن عمي (جيرشون)..

ـ بل هو والدك الذي صنع بي هذا!

ـ أنت كاذب مجنون..

رمقها بنظرات تقول الصدق المروع، فشعرت برعب لا حدود له..

ـ "كان بإمكاني قتلك هناك، وأنت على علم بذلك.."

همست منزعجة:

ـ لم يسعفك الموقف على فعلها، كنت ورقتك الرابحة للنجاة..

ـ تفقدي رفيقي بالله عليك، انه يحتضر!

ـ نبرتك صادقة حقاً، لكنني لا أستطيع التصديق..

ـ سيقتلنا والدك، سيذبحنا وأنت تعلمين ذلك، وكل ما أطلبه منك هو إنقاذ رفيقي المحتضر!

ـ إنك تبالغ، والدي لن يقتل أحداً! لابد وأنك أثرت غيظه كي يصنع بوجهك هذه الجروح..

ـ إذن أنا أتوسل إليك..

ـ أرجوك كفّ عن هذا..

ـ أتوسل إليك أن ترحمي حاله، تبدين فتاة لطيفة حقاً، وأنا لم أفقد الأمل بعد!

تصاعدت حمرة الخجل لوجنتيها وهي تهمس:

ـ كفّ عن محاولتك خداعي.. أنا أرجوك!

ـ أنا لا أفعل.. لم أكذب في حياتي أبداً، وعندما أقول لطيفة أقصد ذلك، بل وجميلة أيضاً!

ـ يا لك من مخادع!

لكنها قالتها بنبرة خافتة للغاية، ومن ثم تنهدت من أعماق قلبها دون أن تدر كيف ترد..

ثم تراجعت للوراء، وهزت رأسها قائلةً بعناد وتصميم:

ـ لا! لقد حاولت قتل والدي! وأنا لست خائنةً! وأنت مجرد عبد خاضع لنا!

قال ببرودة:

ـ لا تناديني بالعبد..

ـ أنت عبد لنا.. أنت عبد لي!

وأطفأت المصباح قبل خروجها المتعجل من القبو وفرائضها ترتعد، فتأمل سقف القبو بصمت، ثم دفع برأسه للوراء ضارباً الجدار وكأنه ينتقم منه..

كان ذلك قبل أن يفاجأ بها وقد عادت، ولم يستطع تبين التردد الذي لاح في كل خلجة من خلجاتها!



حكاية شافيد و يوخفيد

وقفت بالقرب من شجرة البرتقال الوليدة لتتأملها بصمت ودعة..

دنا ببطء وحذر، وتساءل بنبرة خفيضة كي لا يفاجأ بالاستيقاظ:

ـ أين أنت الآن؟

دندنت لحنا عذبا تردد صداه في أرجاء الوادي، ولم يبد عليها سماعه أو الشعور بوجوده..

ـ "أخبريني، أخبريني بمكانك كي أنجدك.."

واصلت الدندنة ببرودة وخواء، فصرخ فجأة وهو يشد جانب رأسه:

ـ أين أنت؟!

ـ "أتا شام، أوي كتان!"

التفت للوراء مذعورا، فأبصرهم قادمين نحوهما، فاستدار للفتاة صائحاً وهو يمد يده لها:

ـ هلمي معي..

وكأنه سراب لا وجود له! ورغم ذلك لم يكن مستعداً للتخلي عنها، فانقض عليها محاولاً الإمساك بيدها، لكنها سرعان ما تلاشت فور ملامسته لأناملها!

تلفت حوله في ذعر بالغ، فوجد الغيوم الرمادية تحجب نور الشمس ببطء أثار رهبته..

الكابوس اللعين من جديد.. وعندما حاول الهرب أصابه ما توقعه من فوره.. لقد أغرقت الدماء قدمه! سقط أرضاً وقد شعر بثقلها وعدم قدرتها على حمله، في حين اقترب الجنود أصحاب الوجوه الشائهة أكثر..

سمع صوتا يتردد بسخرية:

ـ استسلم أيها الخاطئ، فمكانك ليس هنا!

كان صوت حوذي عربة الموت، لكنه لم يتمكن من رؤيته هذه المرة..

أهو الموت؟ أهو الموت أخيراً؟!

لكن لا.. هو ليس بأقل من رفاقه الشجعان الذين يخوضون خطر الموت الحقيقي هناك.. في مستوطنة القتلة!

هكذا نهض متحاملاً على نفسه، وكزّ على أسنانه وهو يجبر قدمه على مساندته في الوقوف من جديد..

ـ "لعمود!! (توقف)"

لن يتوقف.. إنها مملكة أحلامه، والكرة الآن في ملعبه كما يقولون..

وبنظرة واحدة منه لقدمه المصابة، تلاشت الدماء القانية عنها تماماً!

وبنظرة أخرى للجنود الذين اقتربوا منه كثيراً، تلاشوا وكأنهم لم يوجدوا!

ـ "هذه مملكتي، إذن فأنا الملك هنا!"

سيطر عليه شعور عاصف بالغضب بعد الخوف.. قد كان الأوباش يرتعون في أرجاء مملكته الجميلة دون حائل ليدنسوها!

ألم يكفهم تدنيس الأرض المقدسة وبيت المقدس؟

هدأ لحد ما، فصعد بنظره للسماء ليرمقها بنظرات طويلة، وبحذر مدّ يده إلى هناك..

وكأنه ضباب ينقشع! ومن جديد عاودت الشمس إشراقها الدافئ الجميل.. فتبسم أخيراً في حبور متأملاً المكان من حوله كمن فرغ من طلاء شقته أو تأثيثها! قد كان لا يعي شيئاً من تلك القدرات الذهنية المذهلة قبلاً، لكن الوضع تبدل الآن..

وهنا قرر التمادي أكثر، فرفع عقيرته صائحاً:

ـ ساعدني على إيجاد (أوديت) كائناً من كنت!

لا أعلم حقاً من تكون، لكنني أعلم أن نواياك حسنة، فأنت تحاول مساعدتي بتحذيري!

أشكرك من صميم قلبي، لكنني أفضل تحمل تبعات صنائعي حتى ولو كان بها هلاكي المؤكد!

لا أريد معرفة من تكون، لا أود معرفة سبب فعلك ذلك.. فقط أطلعني على مكانها أرجوك!

وفجأة، لمح ذلك الظل المبهم والمتموج بشكل غرائبي.. كما لو كان ظلاً متجسداً على صورة إنسان، وقد

انحنى على شجرة البرتقال الصغيرة وكأنه يتفحصها!

ـ "أنت!"

نهض بغتة وأطلق لساقيه العنان، فلحق الفتى به وهو يهتف:

ـ انتظر أرجوك!

وعند سفح الوادي الذي تغير لمكان مألوف من أرض الواقع هبط ذلك الظل الغريب، ولما وصل (يزن) إلى هناك أدرك سبب تيقنه من أن المكان مألوف لديه، فقد كانت ذات البقعة التي راقب منها المستوطنة برفقة (منذر) و(نصار)!

والمستوطنة كانت هناك، كئيبة المنظر كالعادة ـ والمنظر كله رمادي وبني

اللون كالخريف ـ فأدرك (يزن) بأن الدمج بين المملكتين قد تم بنجاح..

هبط المنحدر بسرعة هو الآخر، فأبصر الغريب يركض إلى المنازل ذات الأسوار المرتفعة كالحصون.. لحق به، وحينما ولج المستوطنة تصور لوهلة أنه قد

أضاع دليله الغامض.. لا! لقد لمحه عند إحدى الزوايا لأحد المنازل، فسارع باللحاق به..

رأى والأمل يتصاعد في أعماق قلبه سيارة تاجر (بيسان)، كانت لا تزال محتفظة بلونها وسط ذلك العالم الغريب الشاحب.. أتراها في أحد المنزلين أمامه؟ أيهما إذن؟ أين تراهم سجنوا (أوديت) بحق الله؟!

سمع صوتاً كرنين الأجراس، فنظر جهة اليمين ليجد مرشده العجيب واقفاً أمام منزل ثالث! كان يتأمله متجاهلاً وجود (يزن)، فما إن خطى الأخير اتجاهه حتى تلاشى كالسراب!

كان تلاشيه مثيراً للخوف، لكن (يزن) لم يشعر به إلا قليلاً، إن عليه الآن إكمال الشوط المجهول وقطعه حتى النهاية غير المعلومة، فتقدم بصورة طبيعية حتى توقف أمام باب ذلك المنزل..

شاهد كلمة مبهمة تتموج بصورة غريبة عليه، وهي كلمة: "بو"! فشعر بحيرة شديدة، وهمس متأملاً الكلمة المصطبغة باللون الأسود:

ـ وما معنى هذا؟

فوجئ بالكلمة تتبدل عقب ثوان كالشعوذة، وفي هذه المرة كانت تقول: "هنا"!

شده الفتى وعيناه تتأملان المنزل بإمعان وكأنه يخزنه في جميع ثنايا عقله، قبل نطق لسانه مخاطباً شبحاً:

ـ شكراً لك!

في البداية كان ينسحب ببطء من هذا العالم الغامض المحيط به..

ثم تعسرت الرؤية التي كانت شبه واضحة لتصير بذلك مستحيلة، وشعر بثقل أنفاسه قبيل تشوش ذهنه بشدة..

فتح جفنيه واجدا الشمس قد شارفت على الشروق، فنهض متثاقلاً وهو يمسح لعابه الذي سال من فيه وهو غاف، وسار مترنحاً إلى حقيبته، فسحب منها سكينه ليخبئها داخل جيب سرواله، ثم سار باتجاه المنحدر المؤدي للمستوطنة..

ـ "إلى أين؟"

استعاد بعضاً من تركيزه وإن تمنى لو كان بمقدوره غسل وجهه، فنظر إلى حيث يجلس (نصار) ليحرس الفتاة اليهودية النائمة..

ـ "لقضاء حاجة.."

تأمله الفتى الضخم في شك ولم يتكلم ثانية..

فما إن هبط (يزن) المنحدر حتى أطلق لساقيه العنان، فانطلقتا تسابقان الريح نحو المستوطنة المشئومة.. في هذه المرة سيتمكن من استعادة (أوديت) حتى وإن كان ما رآه مجرد فخ منصوب له!

جدته حكت له عن مدى براعة اليهود في استخدام السحر الأسود، فهل ذلك ما يمارسونه معه؟ ألذلك ظهرت "هنا" بالعبرية أولاً؟ لقد قرب موعد المجازفة بكل شيء، حتى بحياته..

بلغ المستوطنة أخيراً بعد ركض متواصل ـ ولم يشعر برهبة وخوف كما في المرة السابقة ـ وإلى حيث تقف سيارة التاجر اليهودي الزرقاء اتجه.. وصل إلى هناك، ثم ـ وبقلب يدق بعنف ـ سار إلى حيث المنزل الذي ينشده..

وأمام بابه المألوف توقف:

ـ "هنا"!

قالها متنفسا ببطء رغم فرضية الفخ التي عاودت طوفانها عبر عقله، عندما فوجئ بيد خشنة تكمم له فمه، وسحب ـ وقدماه تركلان الهواء ـ إلى ما وراء أحد الجدران..

فوجئ أكثر لدى سماعه تلك النبرة المألوفة:

ـ أيها المغفل!

ووجد (يزن) نفسه طليقاً من جديد، فهتف ملتفتاً:

ـ (نصر)!

ـ أخفض صوتك، ما الذي تفعله هنا يا مجنون؟!

ـ ظننتهم قد أمسكوا بك..

ـ دعك مني وردّ على سؤالي..

ـ جئت لأجلها.. لأجل (أوديت)!

ـ سبحان الله! كلنا جئنا لأجلها!

ـ إنها في ذلك المنزل!

ـ ماذا قلت؟!

قالها (نصر) وهو ينظر باتجاه المنزل المقصود، ثم أشار نحوه قائلاً ببسمة ساخرة:

ـ في ذلك المنزل؟

ـ أجل..

ـ وكيف عرفت ذلك؟ برمي الودع؟

ـ لمحتهم يأخذونها إليه!

ـ كنت أراقب هذه الأنحاء الوقت كله ولم..

ـ أكاد أقسم لك أنها هنا!

ـ ما هذا يا هذا؟ أتعبث معي أم ماذا؟ أتحسبنا نلهو هاهنا؟

كان ذلك آخر ما ينشده (يزن).. الصدام.. ومع من؟

(نصر) الذي يشتعل فتيله بسرعة البرق لأقل شيء..

ـ "ولا كلمة!"

وجذب (يزن) للوراء قبل أن يطل بوجهه كي يرقب المنزل، فقد فتح بابه ليخرج منه الحاخام (بيرح) مستنداً على كتف التاجر الأصلع..

- "زيارات سرية!"

قالها (نصر) قاصدا بها التواصل المريب بين أصحاب المنازل الثلاثة، ولم يتمكن (يزن) من فهم مقصده من تلك العبارة..

سمع (نصر) يقول وهو لا يزال يراقب بإمعان:

- ينبغي لنا التأكد مما تقول، فقد تكون محقاً!

- إنه وقت المجازفة بكل شيء!

نظر له (نصر) صامتا، وعقب برهة قال بوجل:

- الحق كله معك.. إن كل دقيقة تأخير تضع حياة الرفاق على المحك، هذا إذا لم يكونوا قد فارقوا الحياة فعلاً..

- ما الذي ستفعله؟

- توارى ساكناً..

ونحو المنزل اتجه، فراقبه (يزن) وهو يقضم أظفاره.. يا له من شجاع متهور!

وأمام الباب توقف، فشرع في ركله بقدمه بأكبر صخب ممكن!

دقيقة مرت قبل أن ينفتح الباب ببطء، وظهر على عتبته فتيّان قويا الشكيمة، سددا نظرات تقطر شراً نحو (نصر)..

ـ "مي أتا؟" (من أنت؟)

تساءل أطولهما بنبرة حادة، فتفكر (نصر) هنيهة، ثم أجاب بالعبارة الوحيدة التي يجيدها بعبرية بالغة السوء:

ـ اين لي تعودا! (ما معي هوية)

تبادلا نظرات جلية المعنى تحمل ذات الرسالة: هاهو ذا وغد عربي آخر.. فلنقبض عليه!

سدد الفتى صاحب القامة المديدة لكمته الأولى إلى وجه (نصر)، وهجم عليه الآخر دافعاً بقدمه في معدته ليطرحه أرضاً..

ـ "يا أولاد ال..!"

وبصق (نصر)، ثم وثب بغتة ليسدد لكمة قوية في عين الفتى الطويل ويلوذ بعدها بالفرار! فصرخ الفتى متألماً وبغضب جنوني وهو يركض مع الفتى الآخر وراء (نصر)..

- "كلب! تعالي! تعالي!"

انطلق (نصر) بسرعة عداء رياضي بارع، ولم يلتفت للوراء قط كي يدرك ما إذا كانا في أعقابه أم لا، فقد كان صوت خطواتهما يقترب منه، فلعن الدخان والسجائر في سره، وزاد من سرعته وقد ابتدأ يلهث بعنف بالغ..

أخيراً خرج من المستوطنة وبلغ المرتفع، فابتدأ بتسلقه.. توقف برهة أثناء ذلك لالتقاط أنفاسه ومعرفة مقدار المسافة المفرقة بينه وبينهما، كان البعد مريحاً لكنه في تقلص مقلق، فتناول حجراً متوسط الحجم قذفه بدقة على وجه الطويل.. ومن سخرية الحظ أنه أصابه في ذات موضع لكمته، فاستشاط الأخير غضبا جنونيا ويده تغطي عينه المصابة متوقفا هنيهة عن المطاردة..

- "كلب!! كلب!!"

ومن ثم واصل مع الفتى الآخر المطاردة بعناد أكبر وتهور أشد..

تسلق (نصر) بسرعة متجاهلا شتائم الفتى اليهودي، كان يعلم أنه آخذ بالاقتراب منه، لكنه لم يلق

لذلك بالا، بل على العكس تماماً، كان يبتسم ابتسامة ماكرة من بين أسنانه..

بلغ القمة أخيراً، في حين لحق به الفتى الغاضب صارخا:

ـ انتظر يا حشرة!

وصاح به الآخر وهو يحاول اللحاق به لاهثاً:

ـ انتظر (شافيد)!

لكنه تجاهل النداء مواصلا الصعود بهيجان، فكل ما يراه الآن هو لوحة دموية للانتقام!

بلغ القمة هو الآخر، فصرخ منتصراً:

ـ ظفرت بك الآن أيها ال..

فوجئ بفتى عملاق يقف أمامه مباشرة، وبسرعة ومن دون كلمات أو تعابير على وجهه قام ذلك الفتى بلكمه في وجهه ومعدته كملاكم محترف!

حاول (شافيد) الرد على تلك اللكمات بأخرى أقوى، لكن لكمة واحدة فقط أصابت جسد ذلك الفتى

الضخم، فلم يظهر عليه الشعور بها! وفي النهاية حمل الفتى ورماه من فوق المنحدر ككيس للقمامة!

هبط اليهودي بعنف بالغ ورأسه وجسمه يصطدم بالصخور عدة مرات، كل ذلك واليهودي الآخر يصيح هلعاً:

ـ (شافيد)!!

ثم لم يلبث أن سكن الجسم المندفع بعنف أخيراً، ولكن بعدما غادرته روحه!

ـ "(شافيد)!!"

تبدى رعب هائل عليه وهو يتراجع، ثم لم يلبث أن أطلق لساقيه العنان عائداً من حيث أتى..

صوّب (نصار) بنصره الصغير اتجاهه متمتما بازدراء ساخر وهو يتابع ركضه المتخبط:

ـ أركض وكأن الشيطان خلفك.. أركض ولا ترجع!

حكاية جليلا

أمام الباب شبه الموارب وقف (يزن) متردداً..

سمع من يقول له بتؤدة:

ـ ماذا تنتظر؟

نظر ليجد (منذر) واقفا إلى جواره، فهمس:

ـ أخشى أن يكون الأوان قد فات..

ـ لا تضع مزيدا من الوقت إذن، إما أن تجدها حية أو تنجو بجلدك..

ـ أحقاً تظنني راغبا بذلك؟ يجب أن أجدها..

قالها بمرارة، ومن ثم ولج بلا أدنى تردد..

سار هنا وهناك متفقدا الحجرات، والغريب أنه لم يشعر بخوف من أي نوع، بل انه رفع عقيرته بالهتاف:

ـ (أوديت)! أين أنت؟

وهنا سمع صوتا في حجرة لم يبلغها بعد، فأسرع إليها واقتحمها صائحاً بتلهف متهور:

ـ (أوديت)؟!

وجد فتاة.. لكنها لم تكن فتاته..

كانت جالسة فوق سريرها وقد دفنت وجهها في ركبتيها اللتين طوقتهما بذراعيها..

وببطء رفعت وجهها طفيف النمش جذاب الملامح إلى حد ما، كانت ترتدي نظارة طبية، شعرها أسود قصير تخللته خصلة بيضاء في غير أوانها، نظراتها تشي بالعذاب والمعاناة!

قالت له بعربية ركيكة أثارت دهشته:

ـ أهلاً بك!

رمقها بنظرة مبهمة قبل أن يقول:

ـ أنت تتكلمين العربية بشكل لا بأس به..

ابتسمت ابتسامة بالغة الحزن، وتنهدت بعمق قبل أن تغمغم بنبرة مريرة:

ـ لقد عشت أجمل سنوات عمري في قطر عربي، وقد كان لي أصدقاء وصديقات عرب أحببتهم كثيراً.. أعتقد بأنهم صاروا الآن يكرهونني كالجحيم!

قالوا قديماً أن من المهم معرفة اللغة التي يتخاطب بها أعداؤنا..

لكنني الآن بت لا أدرك من أعداء من بالضبط؟

من المعتدي ومن المعتدى عليه؟ يا للسؤال المروع!

وتبسمت ناظرة إليه بحزن يفطر القلوب..

ـ "كنت بانتظارك.."

ـ "لكن لماذا؟!"

ابتسمت بسمة شاحبة وهي ترد:

ـ أنسيت ما قلته لي؟ أنت لا ترغب بمعرفة سبب قيامي بذلك، إنك فقط تحاول إنقاذها منهم!

ـ لكنهم بنو قومك..

هبطت من على الفراش قائلةً بعينين دامعتين:

ـ لا، هم ليسوا كذلك..

ورفعت وجهها متأملة السقف بفاه مفغور قليلاً..

ـ "هل ترى هذه الخصلة؟ هل تصدق أنها شابت من هول ما رأيته من أفاعيلهم النكراء؟"

ثم جلست على طرف فراشها هامسة بشفاه مرتعدة:

ـ في الاحتفال السابق قاموا بجلب صبي فلسطيني للقبو.. خطفوه من ذويه، ولم يرحموه أو يرحموا أهله الذين خرجوا للبحث عنه بكل تأكيد..

قاموا بربطه على مقعد خشبي بعد أن جردوه من ثيابه بأكملها، لن أتمكن أبداً من نسيان نظراته، كان يرمقنا مناشداً العطف والرحمة، لكنه لم يكن في البقعة المناسبة لطلبهما..

كانوا يحملون جميعهم مسامير طويلة ذات أطراف محمية على اللهب، ثم ابتدءوا يغرزون تلك المسامير الحامية في جسد الصبي المسكين! تجاهلوا صرخاته، تجاهلوا دمعاته، ظلوا يرددون تراتيل صلواتهم الزائفة

وهم يواصلون تعذيبه، حتى استخرجوا الدم من مواضع التعذيب..

لكنهم لم يحاولوا تعبئة الأوعية بدم الصبي، فالتعذيب كان لا يزال بأوله، أما تحصيل الدم فبآخر الطقس الديني المهيب، نحن شعب الله الموعود بالأراضي والانتصارات! الله راض عنا، راض عن تعذيب صبي!

بعد المسامير أتى دور الشفرات.. قاموا بتمريرها على أصابعه بداية،

فقطعوا أطرافها التي تحمل الأظافر.. صرخ الصبي، صرخ بجنون! صرخ وكأنه يقول لنا: "ألا تشعرون؟ أيها الوحوش! أنا أتألم، الألم يزلزل كياني، سأموت من شناعة الألم، لقد فقدت أصابعي.. الرحمة! الرحمة!"

ممن يطلب الرحمة؟ منا نحن؟ نحن الشعب الموعود، أمرنا الرب بفعل كل ما نرغبه ونشتهيه.. أنتم عبيد بالنسبة لنا! مهمتكم خدمتنا وإمتاعنا بأجسادكم حتى آخر قطرة عرق منه!

أما الدم فللرب، لأجل فطيرة السلام الحلوة التي ستدخلنا باب الخلد من أوسع أبوابه عند ربنا، ربنا الذي خصّنا بحبه عن شعوب الأرض قاطبة!

سالت دموعها كالمطر المتدفق وهي تهمس ذاهلة:

ـ وبعد الشفرات أتى دور الجلد! وكأنهم يقدمون قربانا للشيطان لا لله! قالوا بأن الألم يرضي الله! ونحن نريد أن نحوز رضاه فقط! والصبي مجرد عبد، سيطيعنا رغما عنه!

جلدوه على وجهه وصدره وظهره ومؤخرته، صار لون جسمه خليطا مروعا من الأزرق والأخضر والبنفسجي والأصفر! تهشم أنفه وتورمت عيناه!

صاحت (روث) الدميمة ما إن رأته على تلك الحال الأليمة:

"أرأيتم الشيطان على حقيقته؟ واصلوا ضربه!

اضربوا الشيطان!"

أما حاخامنا (بيرح) فلقد بارك كلماتها وأثنى عليها! وبتلاوة مقدسة ذات صوت رخيم خرج من شفتيه، واصلوا الضرب وهم ينشدون معه.. الجنة لنا الآن! أرض الله لنا الآن! ولكن لماذا لم يمت على الفور؟ كل ذلك التعذيب كان كفيلا بقتل جمل! إلا أن الصبي الأحمق واصل الحياة وكأنه يحاول استفزازنا!

إذا ما كبر هذا الصبي فسيكون حجراً في حائط الواقفين بوجه دباباتنا بلا رهبة أو خوف!

إنهم يصنعون ذلك دائما وكأن الخوف قد انتزع من قلوبهم مباشرة عقب ولادتهم!

الشيطان الصغير لم يمت، الشيطان لم يعد يصرخ أو يتألم، الشيطان ينادي إله إسرائيل! يا للوقاحة! إنه إلهنا لا إلهك أيها الشيطان الصغير!

إنك عبد حقير لا أكثر ولا أقل، والله لن ينظر إلى أمثالك أبداً..

حدّق (يزن) في وجه الفتاة وقد جحظت عيناه جحوظ إنكار مبين..

سألها محاولاً الحفاظ على اتزانه بعد سماعه لتلك الأهوال:

ـ ما اسمك؟

ـ (جليلا)..

ـ هل كنت معهم عندما صنعوا ذلك؟

دمعت عيناها وهي ترد منتحبة بحرارة:

ـ لقد أجبروني على المشاهدة! أجبروني كذلك على تناول الفطير المخلوط بالزعفران ودم الصبي! قالوا أنها تذكرتي إلى مملكة السماء، قالوا بأن الله سيراني وبأني سأرى الله!

تحامل (يزن) على نفسه قبل أن يقول بنبرة ظاهرها هادئ:

ـ لكنك لم تنخدعي يا (جليلا) أليس كذلك؟ لقد ساعدتني كثيراً!

ـ لن أحتمل المزيد من تلك الفظائع.. لن أحتمل!

ـ (جليلا)، أين (أوديت) بحق الله؟

ـ إنها.. إنها في قبونا!

فما إن سمع تلك العبارة حتى تنفس الصعداء وقد ترقرق دمع العرفان في عينيه، وبنبرة متهدجة همس:

ـ خذيني إليها أرجوك..

ـ بالطبع سآخذك إليها، لكن عليك أن تعدني بشيء..

ـ بماذا؟

ـ عدني أن تحاول بذل ما في وسعك لكشف ما يحدث هنا، عدني أن يعرف الجميع حقيقة ما يحدث هنا من مجازر..

ـ أعدك..

ـ إذن فسيكون عليك البقاء حياً!

وتناولت يده قائلةً بابتسامة متهدجة:

ـ هيا بنا..

هكذا اقتادته عبر الغرف إلى حيث تقع درجات مؤدية إلى أسفل، وكلما هبطا أكثر كلما استشعر وجيباً غامضاً في قلبه..

وقفا أمام باب خشبي، وبتؤدة قالت (جليلا) وهي تشير إليه:

ـ صديقتك خلف هذا الباب..

نظر لها ومن ثم للباب، وبرفق مدّ يده وفتحه..

كان الهواء رطبا..

والرؤية شبه متعسرة..

ورغم ذلك تمكن (يزن) من رؤية جسم راقد على الأرضية لا يتحرك، وكأنه غارق في سبات عميق..

دنا ببطء، بخوف، بكل أنواع الانفعالات التي يمكن أن تخطر ببال ابن آدم في لحظة كتلك اللحظة..

وعند بلوغه ذلك الجسد قام بهزه هامسا بنبرة خفيضة:

ـ (أوديت)؟!

وهنا تحرك الجسد، وتمكن من سماع أعذب صوت سمعه في حياته..

ـ "من أنت؟!"

في تلك اللحظة أراد قول كثير من الأمور، لكنه تمالك نفسه، وقال أهم ما يمكن أن يقال في تلك اللحظة:

ـ يجب أن نخرجك من هنا!

مدّ يده ليعاونها على النهوض، لكنها ابتعدت عنه متوجسة خيفة منه، فهتف بلوعة:

ـ لا يا (أوديت)! لا تخافي شيئا بعد الآن! لقد أتيت لنجدتك!

ـ رباه! هذا الصوت!

تصاعد انفعاله لدى نطقها بتلك العبارة، في حين قالت (جليلا) بتوتر:

ـ عليكما بالمغادرة حالاً..

التفت (يزن) إلى (أوديت) متسائلاً:

ـ هل تستطيعين الوقوف؟

ـ أظن ذلك..

عاونها على النهوض، فقالت (جليلا) وهي تتقدم باتجاه الباب:

ـ أسرعا، سأخرجكما من الباب الخلفي..

سار (يزن) معاوناً (أوديت) على السير برفق، شعرها الطويل المشعث يلامس وجهه، فتنساب منه رائحة ليست بالطيبة، لكنه ظل يتنفس منها وكأنها الهواء الذي يمنحه الحياة..

تقدمتهما (جليلا) واقتادتهما حتى الباب المنشود، ومن ثم فتحته لهما قائلة:

ـ لا تنس وعدك لي..

ـ لا تقلقي..

ـ سيرا للأمام حتى آخر هذا الممر، فهو الطريق الأكثر أماناً هنا..

ـ شكراً لك، شكرا على كل شيء..

لكن التردد بدا عليه، فقالت الفتاة متوترة:

ـ ماذا؟

ـ رفاقي.. إنهم..

هتفت محتدة:

ـ إنهم في عداد الأموات الآن، وليس بالإمكان عمل شيء لهم، ارحل وأنقذ روح هذه الفتاة!

شعر (يزن) برغبة حقيقية في التقيؤ، لكنه أجبر معدته على الثبات، وعاون (أوديت) بالاتكاء على كتفه قبل خروجه عبر الباب المؤدي لحريتهما..

سمع صوت إيصاد الباب من خلفه، فتجاهل ذلك مواصلا السير بصبر وأناة..

همست (أوديت) في أذنه بنبرة باكية:

ـ لقد أنقذتني!

ـ لا عليك، ستكونين بخير..

انسابت دموع حارة من مقلتيها وهي تقول:

ـ شكرا لك!

شعر بها تحضنه بكل ما أوتيت من قوة، فقال لها:

ـ سأخرجك من هذا المكان، لا تخافي..

ـ شكرا لك!

في تلك اللحظة، لم يكن يفكر بنجاح مسعاه..

كانت هنالك صورة ثابتة لا تتزحزح عن باله، صورة تمثل (فاتك النمر) وهو مقيد ومثخن بجراح رهيبة من جراء تعذيب شرس لا يعرف الشفقة..

شعر بدموعه تسيل على خديه هو الآخر، لكنه تماسك، وقال للفتاة:

ـ سيكون علينا فعل الكثير للخروج من المستوطنة..

ـ سأفعل أي شيء للعودة إلى البيت..

ـ أتشعرين بألم ما؟

ـ أشعر بالتعب، لكن إياك والتوقف!

بلغا آخر الممر تقريباً، فقام (يزن) بمعاونتها على الجلوس وهي تقول بهلع:

ـ ماذا تفعل؟!

أسند ظهرها للجدار، ثم نظر في عينيها الجميلتين هامساً:

ـ علي التأكد من خلو الشارع.. لا تخافي!

خفّ باتجاه الطريق، وأطل برأسه من وراء الجدار، فوجد الطريق خالياً..

شعر بقلبه يخفق بعنف، فقد استعاد خوفه وهلعه مما قد يحدث لهما لو سقطا.. يجب ألا يضيع مجهود رفاقه حتى ولو دفع حياته ثمنا لذلك!

رجع إليها مسرعاً وهو يقول:

ـ هيا بنا..

ـ أشعر بخوف بالغ..

ـ لا تخافي، سننجو بإذن الله..

بكت بحرقة وهي تهمس برعب مبين:

ـ لا أريد العودة إليهم، أريد أن أعود لأمي!

ـ ستعودين لها!

ومسح عرق جبينه شاعراً بمسؤولية عظمى على عاتقه، كم من التضحيات قدمت من أجل إعادتها لأمها!

همس بعينين مغمضتين:

ـ سأعيدك من أجل (فاتك)، ومن أجل (الديب)، سأعيدك من أجل الجميع..

ظل الطريق خاوياً لحسن الحظ، لم يخرج لهما يهودي واحد طيلة الطريق، فظل يصلي لدوام ذلك حتى بلوغ منحدر الحرية..

قال وهما يسيران بأقصى طاقة يملكانها:

ـ قريباً نخرج من المستوطنة..

ـ إنك لملاك حقيقي!

شعر بعناقها الحار له، فاستشعر كذلك وجيباً في قلبه..

نظر أمامه متجاهلا ذلك، فسألته:

ـ ولكن لماذا خاطرت بنفسك لأجلي؟

ـ المجانين كثيرون!

ـ وأنت أفضلهم.. أنت أفضل مجنون!

تبسم قائلاً:

ـ جميع أصدقائي قالوا عني ذات الشيء!

من بعيد دنا شخصان.. فتسمرت بمكانها وقد شعرت بالصقيع ينساب لعامودها الفقري..

إلا أن (يزن) تنفس الصعداء قبل أن يهمس لها بارتياح:

ـ لقد نجونا!

ـ من هذين؟

ـ لا تخافي، هما صديقان مخلصان!

بلغاه في تلك اللحظة، فهتف في حرارة وخلاص:

ـ هلا بكما!

قال (نصر) متأملاً الفتاة بابتسامة دهشة:

ـ أهي..؟

ـ هي!

ـ سعيد بلقائك!

نظرت له ولنصار بامتنان وعيون دامعة، فاستشعرا حرجا وارتياحا في الوقت ذاته، لقد كانت حقاً تستحق كل ذلك الجهد والعناء!

قال (يزن) لنصار:

ـ أرجو أن تحملها يا (نصار) فهي ضعيفة..

حملها بوجه احمر خجلاً، في حين قال (نصر) متجهما:

ـ هل نرحل الآن؟

أجابه بعد لحظة صمت:

ـ هلموا بنا..

سارا ولم يسر، فنظرا له بحيرة..

في تلك اللحظات كان الذهول يصعقه، بصره معلق باتجاه واحد لا يحيد عنه..

- "لقد عاد! أكاد لا أصدق!!"

نظر (نصر) و(نصار) إلى حيث ينظر بغير تصديق، فشاهدا (الديب) يسير باتجاههم مترنحا!



(٥) قطرات ضئيلة من المطر الشفاف ترتطم بزجاج النافذة، قبل رسمها خطوطا ملتوية يصعب تحديد مساراتها..

رفع (يزن) يده متأملا عروقه الظاهرة من تحت الجلد، ويوجل همس:

- كانت الفتاة اليهودية قد تمكنت من الهرب بمعونة من أحدهم! فقد وجدنا الحبال التي أوثقناها بها محلولة، وقد كان من المستحيل على فتاة هشة مثلها فك تلك القيود المحكمة بمفردها..

عدنا إلى (النمر) لنخبره بفقداننا ولده، فتقبل الفاجعة كأنها هزيمة

فريق يشجعه في مباراة لبطولة الكأس!

أنا أعلم بأن قلبه انفطر على وحيده، لكنه لم ولن يظهر ذلك أمامنا.. لقد أبدى ارتياحا لرجوعنا سالمين مظفرين، وساعدنا كي نخرج بسلام من (تل الشوك)..

ودّعت (الديب) و(نصر) وشقيقه (نصار)، لكنني لم أنسهم أبدا..

بعد تلك المغامرة بحوالي سنة تقريبا، سافرت إلى (بيت قاد) لزيارتهم، وقابلت (نصار) الذي أخبرني باستشهاد (الديب) و(نصر) في عملية نقل ذخائر لمجموعة فدائية في جبل النار..

ونظر إلى زوجته العزيزة، فوجد دموعا حارة تنساب من مقلتيها، وصوتا مبحوحا يصدر عنها قائلا بأقصى درجات التعاسة:

ـ أنا.. لم أكن أعلم!

ـ لا عليك..

ـ كل تلك المعاناة؟ كل تلك المعاناة كانت لأجلي أنا فقط؟!

ـ كنت قد أقسمت على إعادتك لوالدتك يا (أوديت)، لكن تلك العودة كلفتنا الكثير!

ـ يا إلهي!! يا إلهي!!

وغطت وجهها بكفيها، فأراح رأسه على الوسادة مدمدما بصوت مرير والدمع ينحدر من عينيه:

ـ في كل ليلة أشاهد حلما يذكرني بنبوءة والدتك.. الفتى صاحب الندبات الثلاث، يعذبونه بأبشع الوسائل وأحقرها.. صراخ.. دماء.. تراتيل باللغة العبرية تمجد اسم الرب.. وتطالب بحقها كشعب موعود بكل ما على الأرض وفي أعالي السماء!

أحيانــا أرى وأنــا يقــظ هــلاوس تكــاد تــودي بعقلــي..

أحيانــا أرى وأنــا يقــظ شــجرة برتقــال ذابلــة، يقــف بجوارها رجل له سحنة الموت بذاته! يقوم بسقاية وردة ســوداء وحيــدة، كــل ليلــة وفي أمــاكن مختلفــة، كالكابوس الجاثم على صدرك.. وبصوت كابوسي أيضا أسمعه يقول: لم يحن وقت قطفها بعد!

وابتل وجهه بدموع الألم حين همس من بين أسنانه:

ـ في كـل ليلـة أسمعـه ينـشد بـترنم جنـائزي تلـك الأنشودة العبرية القديمة:

"تعال لأقدم لك زهرة برتقال"!

تمت